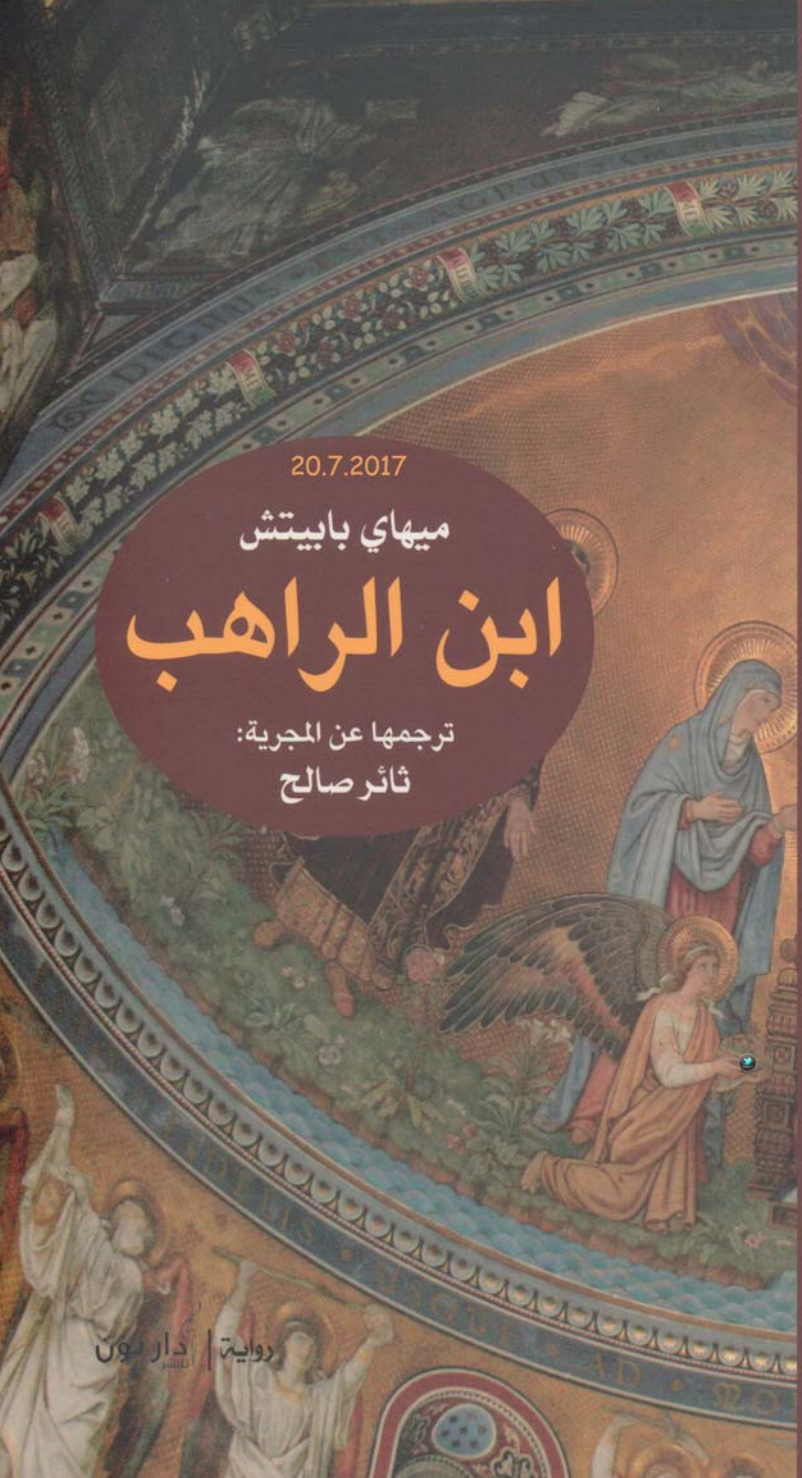

20.7.2017

ميهاي بابيتش

ابن الراهب

ترجمها عن المجرية:

ثائر صالح

رواية | دار نون للنشر

ميهاي بابيتش

ابن الراهب

ترجمها عن المجرية:
ثائر صالح

رواية | دار نون للنشر

ابن الراهب

حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٥ **لدار نون للنشر** - الإمارات.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

الأصل المستخدم في الترجمة:

Babits, Mihály: Timár Virgil fia. Kritikai kiadás. Magyar Könyvklub. Budapest 2001 (Szerkesztette: Sipos Lajos)

Translation copyright © 2015 by **Noon Publishing House**.

المؤلف:ميهاي بابيتش / المترجم: ثائر صالح / عنوان الكتاب: ابن الراهب
طُبع في المملكة الأردنية الهاشمية / الطبعة الأولى: 2015.
صورة الغلاف: داخل كاتدرائية بيتش. ويكيبيديا / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-91-87373-26-8

دار نون للنشر

رأس الخيمة / دولة الإمارات العربية المتحدة / ص.ب ٤٠٠٤٤
عمان / المملكة الأردنية الهاشمية / ص.ب: ١٤٧٦ / تلفاكس:0096264625290
www.dar-noon.com / noon@dar-noon.com

مقدمة المترجم

يعد ميهاي بابيتش (١٨٨٣-١٩٤١) من الكتاب الذين تربعوا على عرش الأدب المجري، من جيل مجلة الغرب.

وقد شهدت الفترة بين الحربين تطورات سياسية- اجتماعية خطيرة، انعكست على الأدب بدورها، فقد انتهت الحرب العالمية الاولى بخسارة النمسا- المجر وألمانيا، وفشلت الثورة الاشتراكية ودولة المجالس المجرية في ١٩١٩ وأغرقت بالدم.

نشر ميهاي بابيتش (١٨٨٣-١٩٤١) هذه الرواية في عام ١٩٢١، بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ الدموية، لذلك لا تختفي وراءها رغبة المثقفين في العيش في سلام وطمأنينة فحسب، بل كذلك الرغبة في العيش في مجتمع تسود فيه القيم والأخلاق بعدما مسختها بشاعات وعبثية الحرب الأولى، الحرب التي نعتبرها نقطة تحول أساسية انكسر فيها صعود التيار الإنسانوي (Humanism) وبدأ بالانحدار منذئذ، ونتائج هذا التراجع في الفكر الإنسانوي واضحة في ظهور الفاشية ونشوب الحرب العالمية الثانية وما رافقها من جرائم، وانحدار النظام الستاليني الشمولي إلى ما وصل إليه من ابتذال بعد تشويه الماركسية مما أضر بمصداقية قيم الاشتراكية والعدالة الاجتماعية. بالطبع، هذا لا يعني أن ما كان قائماً قبل الحرب الأولى في أوروبا يشكل حالةً مثاليةً أخلاقياً، إذ استعمرت أوروبا العالم ونهبت ثرواته بشكل بشع منذ عصر النهضة، وتتوج ذلك في الجرائم التي اقترفتها الدول الاستعمارية "المتحضرة" في

المستعمرات التي هبت من أجل الاستقلال الوطني بعد القضاء على النازية والانتعاش النسبي لقيم الحرية والديمقراطية الذي لم يستمر طويلاً.

بدأ بابيتش بنشر أشعاره في مطلع القرن العشرين، بالتزامن مع ظهور المدارس الفنية العديدة- كالانطباعية وأخواتها- وبرغم ذلك استعمل الحكمة ونظرية الوجود أساساً لرواياته، بالذات في هذه الرواية التي طبعت منها طبعات عديدة بعد نشرها في مجلة الغرب Nyugat (العدد ١٣سنة ١٩٢١)، أولها طبعة ١٩٢٢، وبرغم احتوائها على كل ملامح الأدب الواقعي، يمكن تعريف الرواية هذه بأنها رواية حداثية، لا بل ما بعد حداثية، فهي رواية سيكولوجية تتغلغل في أعماق ثلاث (أو أربع) شخصيات رئيسية بشكل تفصيلي، شخصيات خيالية لا تمت لحياة المؤلف بصلة، بل التقط عناصرها من محيطه، هو الذي أمضى سنوات في تدريس الكلاسيكيات، كذلك تعكس لنا التناقض بين التيارات الفكرية الرئيسية في ذلك العصر، في ظل الاكتشافات العلمية التي هزت أوائل القرن العشرين، مثل أبحاث فرويد في التحليل النفسي التي يوظفها بابيتش في تحليل نفسيات أبطال الرواية، لكن السبب الذي دعاه إلى كتابتها- على ما يبدو- هو أونطولوجي بعد الصدمة المريعة التي سببتها الحرب الأولى والثورة وقمعها، ومعاهدة تريانون المجحفة بحق المجر، وسحق رؤية الفن الحديث (Art nouveau) للعالم التي وضعت الفرد في المركز.

بخلاف رواياته الأخرى، لا نعثر في هذه الرواية على حدث حياتي أو فكري مركزي يقف خلف العمل الإبداعي، فالفكرة الرئيسية لها تعتمد على إشكالية العلاقة مع الله، وتحولاتها من خبرة العيش في ظل العلاقة الشمولية الغنية إلى ضعف هذه العلاقة واتخاذها بعداً ثانوياً، ثم عودتها إلى الواجهة بشكل كلي في خاتمة الرواية الغنية بالعواطف العميقة والنبيلة الصادقة.

تتحدث الرواية عن فيرجيل تيمار، قس راهب من رهبنية السيسترسيين،

هو معلم في مدرسة بمدينة شوت (هي في الواقع مدينة پيتش المجرية الجنوبية)، وعلاقته بتلميذه النابغ پشتا فاغنر، الفتى مجهول الأب الذي تيتم، فيأخذ المعلم تيمار على عاتقه مسؤولية رعايته، عندها تبرز رغبة الراهب الأعزب وقد حرم من الإنجاب في تحويل هذه العلاقة إلى علاقة أب بابنه، إلى أن يدخل الفتى مرحلة العناد والثورة، وتكاد المعادلة تنقلب إلى سيطرة الفتى على المعلم وليس العكس، وبسبب مرض الفتى وابتعاده عن أستاذه تتعزز العلاقة بينهما من جديد، ويبدأ القس بالتخطيط لأخذ تلميذه – ابنه معه في رحلة تعليمية إلى إيطاليا خلال أشهر الصيف، إلا أن قدوم الأب الحقيقي للفتى– وهو كاتب صحفي ليبرالي يهودي اعتنق الكاثوليكية– قلب كل المخطط، فقد ترك الفتى المدرسة ومعلمه حتى قبل إتمام امتحان التخرج منها (البكالوريا أو ما شابه) وذهب مع أبيه الصحفي، بذلك ينحاز بابيتش إلى المشاعر الإنسانية العميقة برغم التناقض الظاهر بين عالم القس النقي وعالم الصحفي المزيف، وخلال الرواية نلمس التأرجح في العلاقة بين الراهب وربه ارتباطاً بقوة أو ضعف العلاقة مع ابنه الروحي، تلميذه، بالتالي يتجلى لنا الطابع الأونطولوجي المتعلق بجوهر الإنسان، إذ تفقد الدوغما الدينية والعادات أو حتى التاريخ معناها من دونه، حسبما أشار بروفيسور تاريخ الأدب لايوش شيبوش المتخصص في أعمال بابيتش.

كل هذا جرى في محيط إبداعي غني ومعقد، تجلى فيه عمق معرفة بابيتش بالألسنيات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية). إلا أن الحديث عن مطالعات تيمار لكتب آباء الكنيسة الأوائل أو تضمين أبيات من إنياذة فيرجيل (فيرجيليوس) أو من اعترافات القديس أغسطين باللاتينية، ليس استعراضاً لعمق علمه في الكلاسيكيات، بل له وظيفة إبداعية في النص: الإشارة إلى تفسيرات متوازية لجوهر الحياة والإنسان، واستنباط واستلهام المثال فيما يتعلق بذلك، في المحصلة النهائية تفسير رؤية تيمار للحياة

ذاتها، ومصادر هذه الرؤية بصفته راهب متبتل، كذلك تخدم هذه الإشارات تجسيد مفهوم المسيحية التاريخية، أي بدءاً من فيرجيل الذي اعتبر في القرون الوسطى أنه قد تنبأ بالسيد المسيح، مروراً بكبار رجال (ونساء!) الكنيسة، حتى توما الأكينوي من القرن الثالث عشر، إلا أن هذا المستوى يتعقد أكثر بالعلاقة مع تجليات الدين والتدين اليومية، مثلاً في اختلاف شخصيات وتصرفات القساوسة المعلمين زملاء تيمار، وانصراف أغلبهم إلى الدنيويات، وسخرية الطلبة من القساوسة.

من جانب آخر، يمثل الصحفي فيتاني، الأب البيولوجي للفتى، التيار الليبرالي الصاعد بكل تناقضاته ولا تماسكه، سواء في تنكره لجذوره (والإشارة هنا تأتي عبر تنكر فيتاني لجذوره اليهودية)، أم في انتقائيته وجبنه وسطحيته، ناهيك عن غروره واهتمامه بالمظاهر (وقد تعرف الناقد الأدبي المجري والناشر الثري الشهير پـال إغنوطوس في فيتاني على شخصيته هو).

عالم فيتاني يختلف تماماً عن عالم تيمار: نجد إيمان أرنست رينان وأناتول فرانس الشكوك يحل محل إيمان أغسطين وجيروم وأمبروز المطلق، نجد أدوات التجميل والعطور والأثاث النفيس محل بساطة معيشة الراهب وكتبه وأثاثه الزاهد، سطحية وتشتت ولا دقة معارف فيتاني برغم تشعبها وشموليتها، مقابل عمق ودقة وسعة علم تيمار، لكن في مجال تخصصه فحسب.

في هذا المقام نشير إلى أن الرواية واجهت دون حق نقداً واتهاماً باللاسامية، بسبب من الإشارات الواردة فيها، وفي الحقيقة أقحم هذا الرأي بسبب النقاش الواسع الذي سبق ورافق ظهور التطرف اليميني الفاشي، بصدد اندماج اليهود في مجتمعاتهم أو تشكيلهم عرقاً منفصلاً، وهو النقاش الذي بدأ مع ظهور الحركة الصهيونية في أوائل القرن العشرين،

وحسمته النازية بقطع الطريق أمام الإندماج لتصب الماء في طاحونة الصهيونية.

وبابيتش الذي احتفلت المجر بالذكرى ١٢٥ لميلاده سنة ٢٠٠٩ شخصية مؤثرة في تاريخ الأدب المجري في النصف الأول من القرن العشرين، ساهم في تحرير مجلة "الغرب"، المجلة الأسطورية والأشهر بين الدوريات الأدبية في المجر، وبشكل أكبر بعد وفاة الشاعر أندره آدي (١٨٧٧-١٩١٩)، ثم أصبح رئيس تحريرها بالاشتراك مع الروائي جيغموند موريتس في ١٩٢٩.

يعتبر بابيتش محافظاً في نظرته، لكن هذه النظرة تقتصر على الأدب والفن، أي الحفاظ على القيم الإنسانية الراقية في الأدب والفن. وافق على تعيينه أستاذاً جامعياً وقت جمهورية المجالس، مما جلب له نقمة القوى اليمينية والقومية فجردوه من مقعد الأستاذية وحرموه من التقاعد المرتبط به بعد القضاء على الثورة، رغم أنه لم يكن اشتراكياً ولا شيوعياً بل مثقفاً يؤمن بالمبادئ الإنسانية والعدالة الاجتماعية وتقدم البشرية، وفوق ذلك يعتبر نفسه مواطناً أوروبياً في الوقت الذي لم تظهر بذور الاتحاد الأوروبي بعد، عندما لاحت الأحقاد والبغضاء والعداوات وهي تهدد مستقبل أوروبا ما بين الحربين، ومع ابتعاده عن الحياة العامة والسياسة، يهاجم بابيتش النازية الصاعدة في آخر أعماله الشعرية "كتاب يونان" [النبي يونان من العهد القديم]، بوصفها نقيض أفكاره في العدالة الاجتماعية والاحتفاء بالإنسان والبشرية.

عرف بابيتش كشاعر من الدرجة الأولى، وتحفل الرواية بالكثير من الصور الشعرية البديعة، واشتهر كذلك بترجماته الأدبية الراقية مثل ترجمته لأشعار بودلير (أزهار الشر) وغوته (اليوميات)، وكانط (السلام الأبدي)، وتعد رائعة دانتي آليجيري الكوميديا الإلهية الأجمل والأشهر من بين ترجماته، وقد

كرمته إيطاليا لترجمته هذه في احتفال أقيم في سان ريمو، قبل وفاته في ١٩٤١، ألا أن ترجمة روايته "ابن فيرجيل تيمار" إلى الإيطالية مبكراً وشهرتها هناك لم تكن بلا تأثير على قرار منحه التكريم دون شك.

بوداأرش، ٣ تشـرين الثاني ٢٠٠٧- تشرين الأول ٢٠١٢

الجزء الأول

الغداء في صالة طعام الرهبان السيسترسيين[1] في مدينة شوت. يتناول القساوسة الذين يرتدون ملابس سوداء وبيضاء الطعام سوية على المائدة الطويلة.

ما أجمله من مكان! تنحني أقواس الجدران السميكة المطلية بلون النظافة محتضنة الجالسين السعداء، خيّم الصمت، بينما كانوا لا يزالون يتناولون الحساء؛ لا نسمع سوى طنين بعض الدبابير الهائمة في فتحات الشبابيك العميقة التي تدخل عبرها أشعة الشمس مائلة، يخرج النادل حاملاً طاس الحساء الكبير بهدوء، سدّوا جوعهم الأول بسرعة، فانفردت أسارير القساوسة المتجهمة جرّاء متاعب المدرسة رويداً رويداً، وحتى المسيح المصلوب على صليبٍ حديدي تمطّى مسترخياً على الجدار.

ينظر الدكتور فنسه هورفات، مدير ورئيس الدير- وهو سيد ذو عيون أبوية ووجه طفولي وشعر أشيب- بسحنة مترددة إلى صف الرهبان، يعرف أن ما يتوجب عليه قوله سيبدو مزعجاً لآذان السادة الأساتذة. ولطيبة قلبه، كان يتحيّن الفرصة المناسبة.

حانت اللحظة. عندما سكب النادل شيئاً من خمر شوملاي في كؤوس

---

١) نسبةً إلى مدينة سيتو Citeaux الفرنسية (Cistercium باللاتينية، ومن هنا الاسم) رهبنة كاثوليكية تأسست في العام ١٠٩٨، عمل رهبانها بالزراعة في بادئ الأمر، ثم اهتموا بالمدارس والتدريس لاحقاً. مركزهم في المجر هو مدينة زيرتس الواقعة إلى الشمال من بحيرة البالاتون.

السادة الذين كانوا منغمسين في مديح الطاهية الجديدة، وتجرأ مارك سادي معلم الدين النحيف بارز العظام على تذوق جميع الأطباق متناسياً داءه المعوي، يتعالى مَرِحاً صوت المطق والمضغ المعتاد الصادر من إيبوي لَشينسكي معلم التاريخ البدين، ويتراقص خلف أذنيه طرفا الفوطة المشدودة تحت حنكه وكأنهما أذني حمار بيضاوين خياليين، أما مدرس الجغرافية تيموت سوبوسلاي ذو الرؤية الدنيوية، فيدفن وجهه في صحيفة "أخبار بودابست" كما لو أنه يأكل في مطعم وليست لديه أدنى معرفة بالجالسين حوله...

بعدهم جلس فيرجيل تيمار بوقار وفي منتهى التواضع. ينظر رئيس الدير بحنان إلى المحيا النبيل للراهب الحقيقي، أفضل أساتذته، وكان الجزء الأخير يتألف من المؤمنين، سانيسلو بوغار أصغرهم سناً، وفوق ذلك هو مربٍ شديد الحماس، إذ يناقش الآن أيضاً أمر حدثٍ مدرسي ما. والدنيويون، وهم مدرسا الرسم والرياضة الموظفان في الدير، على أتم الاستعداد لخدمة الصفوة في آخر المطاف.

ابتدأ المدير كلامه:

- رسالة جديدة من الوزارة-

ترددت هذه الكلمات تحت الأقواس البيضاء، وبين الوجوه الفرحة الطيبة، برنّة ما هو غير معقول: رسالة من الوزارة!

انكمش الرهبان الأوائل، الذين لا تزال أرواحهم تطوف هنا وتتمتع محتجبة بمرأى موائد الغداء المرحة، وانزووا مضطربين في الحجرات فور سماع الكلمة الغريبة...

- ليس لهؤلاء هناك من شغل، سوى خربشة الرسائل

حرر لشينسكي لغدوده المحمر من ياقة القساوسة البيضاء (وقد بقي أثر ضغط الياقة الأبيض على لغده).

تساءل مارك سادي، دون أن يخفي نفوره من السلطة الدنيوية، لربما الماسونية.

- ماذا يبتغون؟

تخاطب أساتذة المدارس الثانوية التي لا تضم أقساماً داخلية... تطالبهم بزيارة التلاميذ في بيوتهم. وتقديم تقارير عن انطباعاتهم بشكل دوري.

- ماذا؟ كيف؟

بقي الفم في رأس لَشينسكي فاغراً مثل مثلث أسود في آخر أحمر، لأن رأسه كان مثلث الشكل. وامتدت يده بفزع لتلتقط اللقمة التي سقطت على الفوطة.

- ماذا؟ أنا أزور الأولاد اليهود؟

وهذا كان الرأي العام كذلك، رهبنية السيسترسيين رهبنية متميزة في رقيها، بل يمكن القول متعجرفة، بالتأكيد تختلف عن رهبنية الرحمة أو الفرنسيسكان، فهم لا يعرفون عيادة المرضى في الأطراف البعيدة للمدينة، حيث الشوارع سيئة السمعة والبيوت قذرة نفاذة الرائحة، فهم يعيشون بين الكتب، أو في صحبة النبلاء، ويقضون عطلهم في سياحة البلدان، ولديهم أطيان غنية وفي أقبيتهم خمور ممتازة، تدور حياتهم حول محوري السكينة والراحة، تعاليهم وراحتهم على السواء دفعاهم إلى الاعتراض على فكرة الوزير، وكم هي المخاطر التي سيتعرضون إليها خلال الزيارة غير المرغوب فيها؟

- الرجل المحترم لا يذهب إطلاقاً إلى أي مكان لا يكون فيه الاستقبال الجيد مضموناً.

قالها تيموت سوبوسلاي وهو يطوي الصحيفة.

أجابه المدير:

- لكننا لا نستطيع تجاهل التعليمات بالكامل- بالذات لأن شوت ليس فيها إلا فقراء الطلبة، ويمكنكم تخيل الأماكن التي يسكن فيها هؤلاء، أماكن مشبوهة حتى من الناحية الأخلاقية...

تساءل سيريل غومبوش:

- لكن ما يمكننا عمله؟ الأمر بحاجة إلى سكن داخلي أو الكثير من المال...

تساءل سوبوسلاي.

- لكن من يسكن عند أبويه؟ هل هذا المكان جيد على الإطلاق؟ بيد أنه لا يمكن منع الطفل من السكن عند أهله.

انتفض مارك سادي، معلم الدين:

- ولم لا؟ خذوا مثلاً هذا الولد، فاغنر...

- ولد محترم، يُعتمد عليه

قالها فيرجيل تيمار بهدوء.

قاطعه سادي:

- ناظر الصف، يدافع عن "أولاده".

لكن كلما كان الفتى جيداً، كلما ازدادت الحاجة إلى العناية به أكثر... كلما تحتم علي أن أمنعه من السكن عند أمه... شهرة أمه كانت ذائعة في كل المحافظة...

رفع سوبوسلاي رأسه الممشط بعناية في حركة نشطة.

- لينا فاغر الجميلة؟

قال لشينسكي:

- آآ، أشهر من نار على علم

- في كل الأحوال، هي ليست تلك المرأة التي يمكنني أن أعهد إليها بتربية فتى مسيحي- أكمل معلم الدين كلامه- يكتسب الفتى الخير والشر على السواء في هذا العمر، جذور الإيمان لا تزال ضعيفة عنده، وهي لا تتقوى تحت أية ظروف...

أنهى المدير النقاش وفض المجلس:

- لا أريد أن أُثقل على السادة الزملاء من غير داع، إلا بالقدر الذي يراه نُظّار الصفوف ضرورياً...

استفسر سانيسلو بوغار المتحمس-والتقرير:

- والتقرير؟

- سنتكلم عن كيفية التقرير في نهاية الفصل الدراسي.

انتقلوا إلى غرفة التدخين لشرب القهوة، وسرعان ما اشتد حَماس لعبة الورق المجري، قدم كذلك بعض الضيوف، محامي الكنيسة والخوري؛ وتعاظم الدخان الثقيل في الغرفة، واشتدت حمرة وزرقة وجه معلم الرياضة المحب للخمر، جرّ شعاع شمس ما بعد الظهر وراءه شرائط ذهبية مائلة في غيوم الدخان، عكست حواف كؤوس الخمر ضياءها الخافتة، وصبغتها أبخرة القهوة الساخنة، وتجرأت أرواح الرهبان السالفين خارجة من مخابئها بهدوء وتمايلت متبرقعة بدخان السجائر.

صعد فيرجيل تيمار إلى غرفته، ما كان يشعر بالراحة إلا فيها، بين كتبه. لم يشرب الخمر، ولم يكن يميل إلى لعب الورق، كرهت أذناه سماع النقاشات أثناء تناول الخمرة بنطقٍ غير سليم.

انتظره في غرفته قديسوه اللاتين المفضلين، أمبروزيوس[٢] الشاعر، أغسطين[٣] الفيلسوف، أوربانوس يروموس[٤] الذكي، في صحبتهم تناسى

٢) القديس أمبروزيوس (٣٤٠-٣٩٧م) أسقف ميلانو

٣) القديس أغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) أسقف هيبّو (عنّابة في الجزائر اليوم)

٤) القديس جيروم (هيرونيموس) (٣٤٠-٤١٩م)

صوت لشينسكي الرنان، وثرثرات مارك سادي الحسودة، وتعالي سوبوسلاي الكهنوتي الهازئ، كم بعيد هو عن زملائه في الرهبنية...

ومع ذلك لم يتمكن من العيش إلا في الدير، أكبر بركة في حياة الرهبان هي ليست الحياة الجماعية، بل حرية العيش في انزواء والعزلة، الفرصة الكبرى في الانسحاب إلى صومعته، لم تسود روح الأخوّة في هذا الدير:

غلّفت المماحكات الصغيرة الخفية والكراهية المتخفية والأحساد بشِباكها صوامع الرهبان؛ غير أن الجميع تعودوا على اعتبار فيرجيل تيمار محايداً.

أعطى الرهبان بعضهم للبعض الآخر نفس الحرية التي أرادوها لأنفسهم بكل طيبة خاطر، ثم أن تيمار لم يشكل تهديداً لأي منهم، ولم يرم حجراً في الماء الراكد.

قالوا عنه:

- راهب حقيقي

ونظروا إليه باحترام ساخر وبألفة عندما يغطى رأسه بقلنسوة قفطانه الحليبي وينصرف إلى غرفته.

لا يذكّرنا هنا بصومعة الرهبان شيء سوى مسند للصلاة على الرف بالقرب من كتاب الأناشيد، وزهور بسيطة ذابلة في مزهرية صغيرة.

كان الأثاث من طراز عتيق على ذوق السادة القدماء، كراسي مخملية بمساند وطاولة كتابة اعتيادية. تدلت على الجدران نسخ لوحات فنانين إيطاليين كبار جلبها تيمار معه أثناء رحلاته إلى إيطاليا، توجد على الرف طبعة جميلة لـ "Summa" توما الأكينوي[٥] مغلفةً بجلد الشَجَران، وعلى

٥) القديس توما الأكينوي Tomaso di Aquino (الأكويني) (١٢٢٤-١٢٧٤م) وعمله الشهير Summa theologiae خلاصة اللاهوت

الأرض أسندت إلى الجدار بعض المجلدات الضخمة التي ألفها الرهبان البولّانديون[٦] عن سير القديسين، تعود إلى مكتبة الرهبنية في مدينة زيرتس.

شرع تيمار بالقراءة، لكنه سرعان ما توقف، ثم ذهب إلى الشباك.

يشرف الشباك على حديقة الدير الواسعة، على أشجار معمرة عظيمة تغمر الغرفة بنصف عتمة لذيذة في الصيف.

نظر تيمار ساهياً إلى بقع ضوء الشمس التي شرعت بالذوبان بين الأغصان والشوارع.

يا له من أمر غريب!

كل مرة يتأثر فيها برنامجه اليومي حتى بأدنى تغيير - سواء انتظر قدوم زائر أو تعين عليه الذهاب إلى مكان غير معتاد- فهو يخسر كل ذلك اليوم، وكأن أفكاره قد تسمرت إلى هذه الدنيا المتململة! تُشلّ أجنحة روحه... لا يستطيع التحليق في قراءاته فوق براري ومغاور القديسين الأوائل، ولا التجول في رحاب قصور نُظُم اللاهوت الفكرية الروحانية لكن المحسوبة بدقة رياضية، هذه هي نتيجة حياته الرقيقة الحساسة البطيئة الإيقاع المنزوية عن العالم، والآن قرر مع ذلك الذهاب إلى بيت الولد فاغنر، وأثقل عليه هذا القرار ثقل الواجب الكريه.

قرر ذلك، ولا يعرف هو أيضاً لماذا أحب هذا الولد؟ أحب الاحترام المقرون بالولاء في عينيه الذكيتين، أحب طراوة كينونته وبراعتها الحرّة.

كرّس تيمار كل حياته للمدرسة إلى جانب كتبه، ورغم أنه لم ينزل إلى درجة العلاقة الحميمة مع تلاميذه، كان هؤلاء ينظرون إليه نظرة الإعجاب

---

٦) أتباع الراهب اليسوعي البلجيكي جان بولّاند (١٥٩٦-١٦٦٥) الذي ألف خمسة مجلدات عن حُياة القديسين

على الدوام، هناك القليل من العلاقات الإنسانية التي تستنبط من الروح الساذجة مشاعراً أشد ثراءً من علاقة التلميذ بالأستاذ، نجد في تيمار ذلك النوع من المثلية المقدسة والمتقشفة للعالم الكبير والرجل المنذور للعزوبية، التي هي الحافز الحقيقي على التربية حسبما يقول غوته، حافز الحفاظ على النوع بالنسبة للروح، فهو يشعر بأن تلاميذه يخصّونه، كما لو أنهم يرتبطون إلى الأبد بقطع الروح التي أعطاها لهم (فهو لم يمنح من روحه أي شخص سواهم!). وأزعجته حساسية وعفة مصطنعة فطرية مثلما أزعجه التحدر المشبوه والمحيط الذي جاء منه أفضل تلميذ عنده، وكأن سمعته هو التي عانت من ثلم، من نشاز يُعاب عليه.

وكم كان جاهلاً في أمور العالم! معرفته عن الحياة والحب والنساء السيئات ساذجة لدرجة شعر معها بذلك هو نفسه! كيف له أن يكون مربٍ لفتيان كبار يقربون البلوغ ويجهّزهم لمعترك الحياة، بينما هو ذاته خبر الحياة بدرجة أقل بكثير ممن يتعين عليه تربيتهم؟ وتحت الشعور بالمسؤولية المحبط توارى كذلك فضول روحي متأخر أيضاً، فضول يموج، إنه السلطة الساحرة الآسرة لعيون ميدوزا اسمها المغامرة، فضول يصيب فجأة الناس الذين يعيشون حياةً خاليةً من المغامرة، وهو يطبق عليهم منطلقاً من غدهم.

بدأت ذكريات غريبة تتزاحم في روحه... ظن أنه نسيها منذ زمن، وحتى أنه تعجب كيف خطرت في باله... طافت في ذهنه كلمات سمعها من زملائه الطلبة في السمينار يوم، في العتمة الخانقة لمنامات الطلاب dormitorium، حيث ترددت أحياناً تحت الأغطية أصوات مكبوتة ضامرة وصلوات مرتعبة، لم يعرها انتباهاً في ذلك الوقت، لم ينتبه إليها عن قصد، ومع ذلك حفظها تماماً.

تضميرات نصف مفهومة وبريئة تماماً، يعرف الآن براءتها، لكن في ذلك

الوقت... لم تبدو بمثل هذه البراءة، كل مغريات الشباب كانت تبث غوايتها من وراءها في ذلك الوقت.

لماذا خطرت هذه الكلمات في ذهنه الآن؟

انتهت غوايات الشباب منذ زمن بعيد، والآن وقد لبس حلة المعرفة والقدسية الباهرة أخذ يتبسم بهدوء على القشعريرة التي كانت تصيبه آنئذ، تفكّر بشموخ في الحياة وقذاراتها والعواطف الجياشة العجيبة وهو في صومعته المظللة السعيدة، وتفضلوا انظروا ما الذي يتسببه شعورٌ واحد في روحه عند أول لمسة جديدة من هذه الحياة القذرة، وكأن خمسة وعشرين سنة قد حذفت من حياته، ها هو يعود فتىً مرتعداً جاهلاً، القسّ الشاب الخائف الفضولي بجبن، الذي بدأ للتو صراعه مع العدو الأزلي الذي لا يتركه يلتقط أنفاسه، مع البعبع الموجود في كل مكان، مع المرأة!

المرأة! لم يلعب هذا الكائن في حياة فيرجيل تيمار دوراً يذكر، لم يعرف أمه، رضع اللبن من زجاجة باردة، ورعته فيما بعد عجوز منبسطة النهد بارزة العظام، عجوز فحسب وليست امرأة، نصف عاملة نصف خادمة عند أبيه، فلاحة ليس لها جنس بالفعل، كان أبوه بستانياً متشدداً، أما ياني (لأن هذا كان اسمه، يانوش[٧]، قبل أن يصبح إنساناً جديداً في سلك الرهبنة) فجلس طوال اليوم عند طرف صفوف الزهور على الأرض الطرية واضعاً في حضنه صور القديسين التي حصل عليها من معلم الدين مكافأةً على حسن سلوكه، منذ ذلك الوقت شغلت مخيلته هذه الكائنات الغامضة:

القديسون الذين تعمقوا في العلوم السماوية، وعملوا الكرامات بصلواتهم، ومع ذلك كانوا متواضعين كالأطفال، وتحملوا كل عذابات الشهادة والابتسامة تعلو شفاههم، قلبه الطفولي كان يحلم بالانضمام إلى صفوفهم، وتساءل في نفسه مرتعداً، هل يستطيع أن يكون بطلاً مثلهم، ويصرح بإيمانه شجاعاً أمام جلاديه؟

٧) يقابل يوحنا، ويقال ياني للتدليل والتحبب حسب العادة المجرية.

في الرابعة عشرة لبس ياني الصغير لباس طلبة اللاهوت الأزرق، وتسلل الحب الأول اللاواعي إلى قلبه من كتاب حياة القديسين:

قديسات بطلات، آغنس[٨] الطفلة التي تسلم نفسها للجلاد بكل هدوء، كاترين[٩] الذكية التي أخجلت حكماء الإمبراطور... لم يلتق بنساء من لحم ودم، وإذا صدف والتقى بهن، لم يجرأ على النظر إليهن، لكنه في داخله يتأثر وهو يفكر في أسرار الحياة والحب الكبرى، في القديس ألكسيوس[١٠] الذي اتفق مع زوجه على البقاء عذراوين، أو في القديس أنطون[١١] الذي رافقته إناث الحيوان في البرية، زد على ذلك الكلمات الموحية في منامات السكن الطلابي. وفيما بعد، عندما درس كتاب Theologia Moralis[١٢]، هذا الكتاب المريع الذي لم تبتكره إلا مخيلة راهب منفعلة، امتلأت روحه بالنفور والتقزز.

آه من حالات Theologia Moralis، آه من الأمثلة القذرة في علم التطبيقات العملية للدوغما عن الحب عند الاعتراف، فإذا كان كل هذا حقيقة، كل هذا قد حدث، فسيحدث هنا، كل يوم، بالقرب منه، بالقرب من تلميذه!..

ما هي إذن هذه المرأة، أي كائن بوجهين هي بحيث تولد للقداسة والنجاسة في آنٍ واحد؟

مم خلق جسد المرأة حتى يمكن أن يكون وعاءً للعفة ووسيلةً للمكاره على حد سواء؟ مرت أمام مخيلة فيرجيل تيمار صور كل نساء كتب سير

---

٨) القديسة آغنس (القرن ٢-٤) رفضت الزواج برجل وثني، فأخذوها إلى ماخور، ثم قتلوها.

٩) القديسة كاتالين من سينّا (١٣٤٧-١٣٨٠) هي التي أقنعت البابا غريغوري التاسع بالعودة من آفينيون إلى الفاتيكان

١٠) قديس من القرن الخامس

١١) القديس أنطونيوس (حوالي ٢٥٠-٣٥٦م)

١٢) التعاليم الأخلاقية للقساوسة، من الكتب التعليمية الأساسية في اللاهوت

القديسين، هيلينا[١٣] المتسامية ومونيكا[١٤] الحكيمة، السيدات الرومانيات اللائي تحلقن حول يروموس... توقف أمام لوحاته ونظر بدون وعي إلى سعة حوض السيدة العذراء التي رسمها رافائيلو وطيات ملابسها، نظر إلى العيون النارية لملائكة بوتيشلّي، وتمعن في الوجه البيضوي الرقيق لعذراء كريفلّي، فكر في أسماء سيدات، في الثرثرات النسوانية لزملائه في الدير التي سمعها منهم بينما كانوا يتناقشون أثناء تناول الغداء.

وفكر في حياته الخالية من النساء.

كانت حياة فيرجيل تيمار ومشاغله اليومية منظمة بحيث يمكن لسكان شوت أن يضبطوا ساعاتهم عليها، تماماً مثلما كان يفعل سكان كونيغسبرغ مع كانط، قبيل المساء، في تمام الخامسة والنصف، يظهر في شارع سافير المؤدي إلى بستان كروم الخاص بالرهبان السيسترسيين. يسير ببطء على امتداد الأسيجة المصنوعة من الألواح الخشبية التي نثرت على جلبابه المصفر أشرطة متسارعة من ظلال شمس العصر المائلة، وينثني الجلباب متأرجحاً حول ساقي الرجل؛ وتتلاقف الريح أطراف صدرية القساوسة السوداء- ارتداؤها تقليد بقي منذ زمن كانت فيه رهبنة السيسترسيين تعمل بالزراعة-.

قال الطلاب لبعضهم البعض إذ رأوه عن بعد

- سنونو

(لأن هذا كان اسم الرهبان بملابسهم السود البيض حسب لغة الطلاب)، ثم دسوا رؤوسهم في ياقاتهم بشيء من الخبث، لكنهم عندما يتعرفون على فيرجيل، يمدّوها من جديد في منتهى الثقة ويحيونه بوجوه مبتسمة:

---

١٣) القديسة هيلينا (القرن الرابع) أم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الذي رفع المسيحية إلى مصاف الدين الرسمي للإمبراطورية

١٤) أم القديس أغسطين

Laudetur Jesus Christus[١٥]-

- In aeternum[١٦]- يجيبهم تيمار ويواصل سيره، لو يصادف زملاء له من الرهبنية وجهاً لوجه، يحيون بعضهم البعض تحية صامتة، لا يتبادلون الكلام أبداً، ولا ينضمون لبعضهم البعض، ولا يسيرون سوية، وعلى العكس من ذلك، غالباً ما أخذ معه تلميذاً صغيراً حتى يصلان الكروم، وهو يحدثه طوال الطريق عن أمور المدرسة، أو عن حياة الرومان القدماء، يخلعون قبعاتهم عندما يقتربون من كنيسة القديس ماكار بصمت، وينطلقون بخطوات ثابتة ليتسلقوا جبل ماكار، وهناك في أيام الخريف يجد للفتى إجاصة أو كمثرى أو عنقود عنب...

هكذا سار الأمر من يوم ليوم.

أما اليوم فقد تعجب سكان شوت لرؤية هيئة تيمار البسيطة عندما ظهرت عند الأسيجة مبكراً بعد الظهر بدلاً من الساعة المعتادة قبل الغروب، كانت الشمس لا تزال تسلط أشعتها الحارقة غاضبة، وضربت ظلال الألواح الخشبية الحادة نهراً من اللهيب، وبينما تمددت تماثيل القديسين الحجرية في كنيسة ماكار عطشى وتلوّت أطرافها الباروكية، فالحجرات لم تمنّ عليها بالظلال بعد، توقف تيمار وهو يتصبب عرقاً وخلع قبعته..

كان لديه ثعلبان في مزرعة العنب، جِروا ثعالب أمسك بهما القائم بأعمال المزرعة ذات يوم فقام تيمار بتربيتهما، راقب لعبة الحيوانين الصغيرين وهما يمرحان في سلة كبيرة؛ تمرغا في أوضاع غريبة وعضّا رقبتي بعضهما البعض ولهثا وهما يمدان لسانيها، أراد تيمار الذهاب إلى شقة الولد فاغنر في المساء، ولهذا بكّر في الذهاب إلى كرم العنب، لكنه لم يعد حتى عند المغيب، بقي هناك بصحبة الثعلبين الصغيرين متردداً...

---

١٥) ليتمجد يسوع المسيح

١٦) إلى الأبد

في اليوم التالي، في المدرسة، نظر تيمار ساهياً عبر الرؤوس الفتية الغارقة في التفكير، وفجأةً يتبين له أن هؤلاء هنا جميعهم، الأشقر والأسمر، ابن الثري والفلاح، الأولاد المجريون والألمان الشفابيون يحتشدون في قاعة درس واحدة ويجتهدون في التركيز على شيء واحد وحيد ويحركون عقولهم النامية في موضوع واحد، يحيون حياة واحدة سوية وبمعيته لسنوات طويلة، إنهم أولاده... ومع ذلك، إلى أي مدى لا يعرفهم! ومع ذلك، لكل واحد منهم خيوطه الخاصة به تربطه بحياة منفصلة أخرى، خيوط تصله بمحيط منفصل، بعائلة منفصلة، بالخلايا الحية المنفصلة للحياة المجهولة والمخيفة، المجهولة بالنسبة لبعضهم البعض وبالنسبة له، كل واحد منهم قد اقترن بعالم آخر، وستمسك دوامة الحياة بالخيوط الخاصة الخفية ذات يوم وتبتلع الأولاد، بعيداً عن بعضهم البعض، بعيداً عنه، كلاً نحو محيطه المنفصل، صوب قدره السري ومصيره...نظر إلى بِشتا[١٧] فاغنر. أي محيط هذا الذي يستدعيه إليه؟ إلى أين يذهب هذا الطفل عندما يذهب إلى البيت؟

لم يخطر بباله قط توجيه هذا السؤال لحد الآن، اكتفى بأن بِشتا تلميذ ذكي وطالب جيد يستقبل كل كلمة من كلماته في احترامٍ مُخلص، وهو يتابع بفرح غامر نمو عقل وذكاء هذا الولد، مثلما يراقب تفتح زهرة نادرة. خيل له كما لو أنه يعيش ما دام يراه، ما دام موجوداً في المدرسة أو أثناء الرحلات التي يقومون بها، أمام ناظريه، كما لو أن الوقت الذي يمضيه دون أن يراه مخصص كي ينجز الفتى الواجبات التي يعطيها إياها، كان واثقاً كالبستاني في زهرته، بأنها تنمو سوية مع الباقين، أما الآن فقد أفاق فيرجيل فجأة ليعرف أن لهذا الفتى حياته الخاصة، ومن يدري أية حياة هي، حياة مجهولة تماماً أمامه.

طلب من الفتى التهيؤ للاختبار.

---

١٧) تحبب وتدليع لاسم إشتفان الذي يقابل سطيفان

- فاغنر، أكمل الترجمة!

وقد دهش هو نفسه من كلماته ذاته... (عادةً ما يسمي أولاده بأسمائهم الأولى وليس باللقب).

بيد أن بِشتا جفل قليلاً، كمن يفيق من حلم عميق، ولم يعرف إلى أي مقطعٍ وصلوا في الترجمة، نظر تيمار إلى أفضل تلميذ عنده في تعجب، لم يتنبه سوى الآن إلى وجه الفتى الشاحب وعيونه الغائرة، وكأنه لم يأخذ كفايته من النوم، غمرت الولد كله سهوة غريبة.

سأله بعد الحصة.

- ما المشكلة يا ولدي؟

- لا شيء.

أجابه الولد وأسرع بالاندساس بين الأولاد المنهمكين باللعب.

كان في صوته شيء من التحدي، والتمع العناد في عينيه، هذا العناد الذي كثيراً ما يظهر عند أفضل وأذكى الأولاد في مثل هذا العمر بشكل مفاجئ، نظر تيمار إليه مفكراً وهو يختفي بين الأولاد.

قرر الآن بشكل قاطع حسم تردده وزيارة الفتى بعد الظهر.

لا يُعد الشارع الذي يسكنون فيه من بين أفضل الأماكن سمعة، فهو يقع في طرف المدينة، حيث لا شيء بعده سوى مكان السوق الشهري والمقبرة وبرج البارود القديم، التقى تيمار بجماعة من الغجر عليهم صديريات من الجوخ فضية الأزرار واسعة، وأثار مرور العربات الصاخبة غباراً خانقاً، وقفت نسوة ذابلات وبنات عجيبات في بوابات الأبنية، لعب أطفال شبه عراة يشوبهم العته تحت أشجار هزيلة، حيث صبغت بقع ثمار التوت الأحمر التراب، فُتح مصراعا باب فندق دهنت جدرانه بلون أصفر قذر، بحيث بدت الباحة الداخلية الجرداء واضحة للعابرين، ساد هذا المكان المغبر

تشوش غريب، وكأنه الوجه الخلفي لقماش هذه المدينة الصغيرة.

حدقوا في القس، وألقى بعض الأطفال التحية عليه تعلوهم المفاجأة، لم يتمكن من التملص من محاولة أحد الأطفال القذرين تقبيل يده إلا بصعوبة.

- أين بناية شترلِنغ يا ولدي؟

استفسر من ولد رث الملابس، لأن البيوت في شوت كانت لها أسماء بدلاً من الأرقام المعتادة

- سأقودك أنا إليه!

صاح طفل، آخر يلبس بنطالاً قصيراً وأسرع أمام القس إلى الطرف الثاني من الشارع، حيث اشرأب مجمع بنايات ذو ثلاث باحات، دونما أي عزاء جاء الطفل الصغير وراءهم باكياً ليحصل على فلسين.

سألته بنت أكبر قليلاً كانت متكئةً على بوابة البناية.

- عمّن تبحث؟

ارتجف القس من الاشمئزاز فور ولوجه الباحة، وكأنه انغمر في نهر قذر، كان هذا المجمّع مماثلاً لبضعة مجمعات موجودة في كل المدن الريفية الكبيرة، تعتبر مكان تراكم أدنى طبقات البؤس، كانت فخر المدينة ذات يوم، أول بناية إيجار ضخمة من عدة طوابق، وبالتأكيد كان على تيمار معرفتها فيما لو كان أكثر معرفة بهذه المدينة التي يقطنها منذ عقد من الأعوام، لم تسمح إمكانيات المدينة الصغيرة المتواضعة ولا العلاقات السائدة فيها بالحفاظ على نظافة وترتيب مثل هذه البناية الضخمة، فتراكمت الأقذار والفوضى في هذه الباحة الجرداء سنة بعد أخرى كما يتراكم الطمي في الأنهار، انتقلت مجموعة البنايات هذه من مالك لمالك إلى أن كفّ المتعهدون اليهود عن مواصلة الصراع من أجل أعمال الصيانة،

ومنذ ذلك الحين لم يذهب أي إنسان محترم للسكن في بناية شترلِنغ، في الجزء الأول من البناية كان هناك حوذي، وفاحت الرائحة الزيتية لشحم العربات النفاذة في الباحة، أما الإسطبل فكان في الخلف، في الجزء الثالث من البناية، لذا قادوا الخيول عبر ممرات البناية الواسعة خروجاً دخولاً طوال اليوم وسط سرور جمع الأطفال الفقراء الغفير، فأصبح باطن المجمع كأنه امتداد للشارع. خيم البؤس على الباحة وعلى الممرات والمسالك العلوية، كانت كل الأبواب مشرّعة وارتفعت من الزوايا كريهة الرائحة أصوات المشاحنات والشتائم وتعنيف الأطفال وصراخ الرضع.

تساءل تيمار في نفسه وهو يتبع البنت ذات الحذاء الأعوج.

- في مثل هذا المكان تسكن لينا فاغنر الجميلة؟

تراءت في مخيلته الصور الضبابية التي رسمتها له قراءاته عن حياة الغانيات أو سمعتها أذناه من نتف قصص السهرات الماجنة للسادة بالتأكيد كان أكثر معرفةً بأخبار غانيات الإسكندرية- في زمن القديس أنطون- أو الغانيات التي كتب عنهن لوقيانوس، من معرفته بأحوال فتيات عصره وبلدته الشهيرات. تخيل لينا فاغنر- التي عرف أنها كانت يوماً عشيقة مالك أراضٍ من النبلاء، ثم انتقلت إلى پشت فعاشت حياةً صاخبةً محاطةً بالكتاب والفنانين قبل أن تعود إلى مسقط رأسها- وهي تعيش بين الحرير والدمقس:

حتى الولد كان يلبس ملابس جميلة ونظيفة.

وفي أي مكان نما المسكين پِشتا هذا؟ بين هذه الخيول وأطفال الأسمال؟

- هل تفضلت بالمجيء من أجل الاعتراف؟

سألته فجأةً البنت ذات الحذاء الأعوج بينما كانا يصعدان إلى الطابق

من الباحة الثانية، فوقع السؤال عليه مسبباً له رجفةً جديدة، فجأة انتبه إلى ظهور العجائز من كل مكان عبر الأبواب المحيطة كأنهن نذائر الموت بوجوه فضولية خلف قناع التعاطف.

- حتى القس جاء

تهامسن في كل مكان.

خيم الظلام على كل الباحة، فالغيم حجب الشمس قبل الآن، ولم يكتسب ذلك أهميةً قصوى إلا الآن فقط.

غلّفت عتمة مريعة شاملة كل شيء: الممر الداخلي المطل على الباحة والرائحة العفنة للمطابخ والأطفال الجائعين الذين يمضغون الذرة، والعجائز الفضوليات لمعرفة خبر الجار المحتضر.

وشعر تيمار الآن، مصعوقاً، بأنه قسيس، وبأنه في نظر هذه العيون البائسة التي تراقبه قد أُرسل من لدن عالم علوي إلى هنا، وبأنه المواساة الروحية، وبأنه من سيمسح بالزيت المسح الأخير، وفجأةً غمره خزي مريع في لمحة بصر، لا يعرف هو ذاته لماذا؟ وبأي أفكار؟ المسيح كان ينظر إلى المجدلية نظرةً أخرى، لم يكن ما شعر به في هواء هذه الباحة النتنة هو الخطيئة، بل البؤس. والخطيئة، أليست صنفاً من أصناف البؤس فحسب؟ شعر تيمار بمنتهى التعاطف مع هذا العالم الفقير، وتألم، تألم لكل شيء، حتى لصرامة التفكير التي واجه بها الفتى في الصباح، عندما أجابه بعناد بينما كانت أمه تحتضر، ربما...

فتح الولد الباب الموصدة الوحيدة في كل البناية، اهتز الولد عندما رأى معلمه، وكانت عيناه- لامعتان كالزهرة المسقية للتو- تنظران إليه برجفة، كم كثيرة هي الأشياء التي تُقرأ في عيني الطفل؟ خوف؟ أم سعادة؟ عناد؟ أم خضوع؟ أو امتنان وثقة طفولية؟

سأله الأستاذ:

- لماذا لم تذكر لي أن أمك مريضة؟

لماذا لم يذكر له؟ منعه شيء غريب، لربما حياء واعٍ من ذكر أية كلمة عن أمه، أمام أي شخص كان على الإطلاق، وكأن حتى مجرد التفكير بأمه هو إهانة، حتى لا يفكروا بها، لينسوا أنها موجودة، ليست موجودة للآخرين، سوى له!

توحد عناد وغضب وشعور سري وعميق بالعار- عار هواء مبنى شترلِنغ بالكامل- في هذه المحبة الفخورة، ولهذا فقط أحب أمه الغالية والمريضة والجميلة والمتقلبة المزاج، أحبها محبة تَستُّرية خجولة بعض الشيء، اقتربت من أن تكون حبّاً؛ لم يتحدث عنها أبداً، لم يدعُ أصدقاءه إلى بيته قط، حتى أنه تكتم على عنوان سكنه.

وغمرته الآن أيضاً مشاعر غريبة، خجل قليلاً لأنه قاد أستاذه إلى شقتهم ذات الغرفة الواحدة عبر المطبخ، حتى أنه كان مرتاعاً بعض الشيء، كان المطبخ صغيراً، لم يطبخوا فيه شيئاً منذ سقطت لينا مريضة، ومنذ اعتاد بِشتا الدراسة فيه، وقف تيمار في عتبة المطبخ وقد غمرته المفاجأة، كانت أمامه جزيرة للنظافة والترتيب في باحة القذارة والبؤس. (بِشتا كان من اعتنى بكل شيء، باجتهاد الطالب المجد). وجّه تيمار إلى الولد أسئلة بصوت خافت.

- كيف هي؟

- بحالٍ سيء.

- من يسهر إلى جانبها؟

- أنا.

- لكنك لا تستطيع البقاء جنبها دوماً؟

- لا، أذهب للتدريس بعد الظهر.

- لمن تعهد بها إذن؟

- تطل عليها سيدة، جارتنا.

- هل طلبت لها طبيباً؟

- طبيب الجمعية.

- ماذا قال؟

غص الولد واختنق صوته، وأخذ بالنحيب، انبثق الينبوع الساخن من الأرض العطشى، لأسابيع طويلة لبس في عزة نفس قناع رجل وضعه على وجهه عناداً بمحبة واعتداد فطري بالنفس، كان هو ولي الأمر في العائلة، أما الآن فقد سقط القناع دفعة واحدة، الآن عاد طفلاً من جديد، طفل يخاف... يخاف أن يبقى وحيداً، غلبته كلمات معلمه بتأثر طفولي، وذابت كل رجولته على الفور، لأنه شعر بقربه صديقاً قوياً، وشعر بالراحة لأنه سيتغلب على الضعف أخيراً، وقف تيمار أمامه فاقد الحيلة، كم كان يود لو تمكن من التصرف بحرارة وأبوة وحنان ومواساة!.. لكن كينونة المعلم منعته من ذلك، كأنه درع الحديد على الفارس الهمام إن أراد أن يحتضن أحداً، بحث عن كلمات المحبة، فلم يخرج من فمه سوى سؤال جاف بارد لا يصدر إلا عن قس سأل الفتى المنتحب حينما سأل الفتى المنتحب سأل :

- هل اعترفت؟

وكمن يرتكب خطأ ما وينكشف فجأة، بلع بِشتا ريقه، كان على وشك البدء بسرد التبريرات، لماذا لم يستدع قسيساً، ألا أنهما في تلك اللحظة سمعا فجأة صوتاً من الغرفة المجاورة حيث ترقد المريضة، صوتاً مرحاً على غير توقع، صفيراً، طقطقة، تغريداً، كأنه صوت صبي جذل، صانع عند الأسطة، كأنه صدى الشمس المختبئة خلف الغمام يتردد عندما تشرق من جديد، فتح تيمار عينيه.

من أين أتى هذا الصوت في بناية شترلِنغ؟

أفلتت من بين دموع پِشتا بسمة خلافاً لرغبته، وانهمر منه الكلام كالطفل:

- آآ – طائر الكناري! تخيل يا أستاذ، طلبت مني أن أجلب لها كناري...

- كناري؟

- نعم... تتواسى حين تسمع صوته، لأنها اعتادت على صوته عند الجدة... عندما كانت طفلةً صغيرة...

شعر تيمار من واجبه قول بضعة كلمات تأنيبية لپِشتا على هذه المحادثة الخصوصية، شيء جميل عندما يواسي أمه بإثارة الذكريات العزيزة على قلبها، لكن عليه ألا ينسى أن العزاء الحقيقي للمرضى هو عزاء قدسية الرب... لا يوجد إنسان قوي إلى الحد الذي يستغني عنه: كلنا مخطئون.

اكفهرّ وجه پِشتا لهذا التعنيف على نحو مفاجئ، مثل الطقس في نيسان، فهذه هي بالذات المشكلة الأكبر التي تواجهه! لأنه يؤمن بجهنم، ويتصور الرب في السماوات مثل المعلم القسيس الصارم الذي يحكم وفق قوانين وقواعد انضباط محددة، وربما حتى المغفرة ستكون غير نافذة من دون تثبيتها في صك الاعتراف... لكن كيف له أن يستدعي القس؟ أيجلب لون ورائحة الموت لمن يخاف الموت؟ أيجلب زيتاً لزجاً وصمت المقابر في رنة الكلمات اللاتينية؟ لم يحدث أن أتى قسيس إلى مبنى شترلِنغ دون أن يتبعه عزرائيل (وما لم يستطع البوح به لتيمار: لم يكن متأكداً من مزاج أمه، أترغب على الإطلاق في رؤية القس؟ لأنها لا تعد بين زوار الكنائس)، جلب زهوراً، وطائر كناري، وخلال ذلك أنّبه ضميره باستمرار، لأن النظام الذي وضعه الرب شديد الصرامة (فربما تُسام أمه العذاب في ذلك العالم الذي لا رجعة منه جراء تسامحه وضعفه).

كم تعذب بِشتا جراء هذه الأمور! وأطبق عليه تأنيب الضمير من جديد للحظة، لكن.. سرعان ما ابتسم من بين دموعه مرةً أخرى، بدا له فيرجيل الآن مثل منقذ، رجل بالغ أبوي يأتي ويقول كلمته فتُحل ورطة الطفل المربعة، قس، معلم، صديق حميم... مرت دقيقة، وخطرت خاطرة، لم يتنبه تيمار إلا وقد جد نفسه عند فراش المريضة.

خطا خطواته إلى الأمام متعثراً وباستحياء... وتفاجأ عندما دخل الغرفة الصغيرة أحس بأنه خرج من مبنى شترلِنغ، كانت الغرفة مختلفة! حجبت ستارة خفيفة من التول المطرز الباحة المربعة، أطل بياض أليف من الجدران، النظافة: نظافة الجدران المدهونة، بياض الشراشف النظيفة، بياض اللحاف المرمي على كرسي، صور وزهور بسيطة، كتب الطفل على منضدة صغيرة، سلة فيها خيوط صوف للحياكة، وصوت الكناري، لم يتسرب من الباحة سوى ضوء الشمس وصوت موسيقى آلية.

ارتفع كتفان ضيقان من الفراش، بملابس نوم بسيطة، وقالت بصوت ضعيف بدا وقد شابته سخرية ودودة:

- شيء جميل أن يأتي الأستاذ إلى هنا، أشكر لك لطفك مع ولدي...

تمتم تيمار بأن هذا واجبه.

- تفضل اجلس. بِشتا! قدم كرسياً للأستاذ. كح كح!

توقفت عن الكلام وقد داهمها السعال.

- لا تأخذ أحلام المريض المسكين!

"المريض المسكين".

قالتها، لكن بابتسامة متهكمة، وكأنها لا تأخذ مرضها على محمل الجدية، احتار تيمار (ربما توقع رؤية مجدلية تحتضر بين نتف الحرير وروائح المرض) بين النظر إلى المرأة والغرفة، فهمت لينا هذه النظرة.

- نعيش في فقر، أليس كذلك؟ نضطر إلى إغلاق الشباك طوال اليوم، إذ تأتينا مختلف أنواع العطور من هذا المبنى الكريه. المرور عبر هذه الباحة عذاب ومعاناة، أليس كذلك؟

- لكن الغرفة لطيفة... حسنة الإنارة...

أمسك الأستاذ بأطراف أول موضوع حديث سنح له.

- بالفعل، لأنني طليت جدرانها عندما انتقلنا إليها. كان عليك رؤيتها قديماً قبل ذلك، بذلك الطلاء المقيت! كح كح (تسعل). أنا أحب هذه الغرفة المطلية الجدران، والجو الريفي...

حقيقة، لم تكن بهيئة من يحتضر، لم يظهر المرض عليها سوى في وجهها الشاحب الشفاف، وعينيها المحمومتين، انتبه تيمار إلى رِفعتها الرصينة التي بدأت بها محاورتها، وفجأة، عندما ذكرت الجو الريفي ولسبب لا يعرفه، أحس بها امرأة تنتمي إلى بيئة المدن الكبرى، وانتبه كذلك إلى رواية فرنسية ممزقة الغلاف موضوعة فوق الخزانة الليلة المصنوعة من ألواح الخشب.

خلال ذلك انشغل بِشتا في رعاية المريضة، رتّب المخدة، رفع يده إلى شفتها، لاطف جبينها بحركات حنان الفتيان الذي يفتقد إلى المهارة، بينما نظر إلى ساعته على الدوام. وأخيراً قال:

- يتوجب علي الآن الذهاب للتدريس يا أستاذ، ماما، سأرسل السيدة فيتمان، أرجوك ماما أن تعديني، لا تدخني! تعرفين ماذا قال الطبيب.

ابتسمت المريضة:

- لا أعير الأطباء اهتماماً يا ولدي.

- لكن الأمر ليس هكذا يا ماما، مادام الإنسان مريضاً إلى هذا الحد...

- لربما لم أعد مريضة إلى هذا الحد، كما يظنون!

- صحيح؟ أتشعرين بتحسن؟

صاح بِشتا الذي نسى دموعه تماماً، غير أن نوبة من السعال الشديد غلبت لينا فجأةً من جديد، فثار الولد في قلق، بأنه لن يغادرها ما لم تعده بعدم التدخين.

- دعني، لا تتناكد معي! ما هو مقترحك البديل؟ لا تناكدني مثلاً سعلت الأم.

خجل بِشتا، وقبل يدها في حركة تنم عن التدليل وسار متثاقلاً وبصمت نحو الباب، غير أنه استدار عائداً:

- نسيت دود الحرير!

ذهب نحو الشباك حيث وجدت ديدان القز التي رباها في علبة دخان قديمة، وأبدل أوراق التوت بأخرى طازجة...

- ولد قروي طيب- قالت لينا، وهي تنظر إلى ابنها. لكن حالها تغير فور مغادرة بِشتا، هزّت كتفيها، واعتدلت جالسةً على الفراش بعصبية، وقالت:

- إيخ! ما الفائدة؟ سأموت!

نظر تيمار إليها بفزع. التمعت عينا المرأة المحمومتان، وقالت:

- لا تزعل، لكني أخاف، أحياناً أخاف بشكل مريع... لا أقدر البوح لإبني، لكني مضطرة للحديث مع شخص ما، وحضرتك قس في آخر الأمر...

وابتسمت من جديد.

- لا تبدو عليك الصرامة. الطبيب صارم، وهو مستعجل على الدوام...

كح كح!

دام السعال طويلاً هذه المرة، جلس تيمار عندها وهو يفكر بالحديث عن التوبة والاعتراف... بحث عن الكلمات، لكن أصابع المرأة النحيلة بدأت بتحسس شيء في الخزانة الليلية.

- من فضلك... هذا الصندوق...

فتح الصندوق بمفتاح، كان فيها سجائر أخفتها عن أعين ولدها مع علبة ثقاب، أشعلت المريضة سيجارة.

قالت:

- سأموت في كل الأحوال.

ثم أطلقت ضحكةً حادةً عندما رأت ملامح القس المندهشة:

- مع ذلك عليك ألا تتصورني امرأةً سيئة! ألا تكفي طيبتي وامتلاكي أعصابي في امتناعي عن الحديث لإبني حول ذلك... لا أريد أن أجعل المسكين يبكي، حتى عندما تكون لي رغبة في ذلك... أرأيت، أنا ممثلة بارعة، ألعب دور الأم الجيدة، لكن...

نظرت في عيني القس بعمق.

- أتعلم إنني أعتقد أن ابني يود لو قمت بالاعتراف، لقد ربيتم من هذا الطفل متعصباً أيها الأساتذة... لا أقول ذلك اتهاماً... لنقل أنني اعترفت لديك، قل له أنني اعترفت، اتفقنا، ليفرح هذا الولد الصغير المسكين!

دخلت سيدة عجوز الغرفة، تبعتها على الإثر القطة.

- أتدخنين من جديد؟

قالتها العجوز بقرف، لكن لينا استخفت بالأمر في حركة من يدها

وهي تبتسم:

- دعك يا سيدة فيتمان، الآن اتركينا، ألا ترين أنني أعترف؟

- لم أر أحداً يعترف وفي فمه السيجارة! سيعاقبك الرب!

تمايلت العجوز خارجة إلى المطبخ، تمالك تيمار نفسه بعض الشيء واعترض على هذا الاعتراف الغريب، قهقهت لينا على ذلك بشكل مخيف، فانتهت إلى سعال شديد. وأخيراً تمكنت من الكلام:

- هل تعتقد بجد... بجد أنني أريد أن أعترف؟ هل أقول لحضرتك كنت امرأة سيئة؟ هذا ليس سراً! الجميع يعرفونه، ربما لم تعرف حضرتك امرأة سيئة مثلي... أيها القس المحترم... أو المبجل، لا تؤاخذني! أردت أن أقول فقط، أنني لا أستطيع الاعتراف بشكل صادق، لأنني لا أشعر بأي نوع من تأنيب الضمير والندم، هكذا ولدت، ولو قدر لي أن أحيا حياتي من جديد، سأعيشها على نفس النحو على الأغلب، وأعترف لك بأنها مناسبة لي تماماً، فقد تسلّيت بشكل جيد. كح كح كح!

سعال طويل.

جلس تيمار على كرسيه متضايقاً، وشعر بنمو براعم الحركة في ركبتيه لينهض ويترك المرأة المتهكمة، لكن شيئاً من الوهن منعه عن ذلك: إذ يجب أن نكون رحيمين بها، فلن تعيش طويلاً؛ ثم إنه لم يعرف صيغة مناسبة للاستئذان. سألته المرأة من جديد:

- لكن لا تظن أنني لم أنصلح! فلو لم أرغب في أن أكون امرأةً شريفةً لما جئت إلى هنا مع ابني، وبسبب ابني لم يكن بإمكاني مواصلة العيش كما في السابق، صحيح، كان في إمكاني الافتراق عن ابني، لكن قل لي، كيف تصف الأمهات اللائي يفعلن ذلك؟ تفو! فضلت

أن أعيش فقيرة في قرية على ذلك، لأن شوت هي قرية... بدأت أجمع المال منذ ولادته حتى أستطيع العيش هنا، لو يصبح للإنسان طفل، سيتغير تماماً، وأقول لك إنني أعيش كالقديسة منذ عودتي إلى شوت، قنوعة بأي شيء، بالطبع أنا في نظر الآخرين تلك المرأة السابقة... كح كح كح! ومع ذلك بقيت هنا، فأنا تربيت في هذا المكان، والشوارع القديمة والبيوت والجبال... كلها جميلة... هي ذاتها بالنسبة لي مثلما كانت في وقت طفولتي...

همّ تيمار بقول شيء. انتبهت لينا إلى اضطرابه، فعلت وجهها الابتسامة الساخرة من جديد.

- ها قد اعترفت أمامك، لست سيئةً للدرجة التي أبدو فيها، أليس كذلك؟ أتعرف من هو أكبر داعية للإيمان؟ أكبر داعية للإيمان هو الطفل، مسكين ولدي الصغير! مثلت أمامه دور الورعة حتى صرت كذلك تقريباً. كح كح كح!

وبينما خفّت نوبة السعال قليلاً، انتبه تيمار بما يشبه التعجب إلى تغير وجهها وكأنها امرأة أخرى، هذه الابتسامة المتعالية التي شعّت منه قبل لحظات ذوت تماماً الآن، وخلفت وراءها وجهاً باكٍ، وجهاً باكٍ وعجوزاً بالفعل.

- مسكين ولدي الصغير! – نحبت بمرارة– إنه طفل صغير طيب، أليس كذلك؟ فأنت تعرفه، كم أنا متأثرة، لو تعلم، يعتني بي، يذاكر درسه في الليل في المطبخ البارد ويأتي على الفور لو صدرت مني حركة واحدة... ذهب الآن ليعلم الصغار، منذ بداية مرضي، حتى يكسب ثمن دوائي... ستعتني به، ستسنده قليلاً، أليس كذلك يا حضرة الأستاذ؟ طالما تحدث عنك في البيت، يحترمك كثيراً... أرجوك أن تعدني... كتبت إلى صديق... كتبت إلى أب الولد...

لكن وجهها انفرد في تلك اللحظة، ونظرت إلى القس في نظرة استفزاز حقيقية.

- أتعرف من كان أبوه؟... لا يمكنك التصور... لو قلت لك... لا أستطيع القول سوى أنه كان فتى طيباً... أصدقائي كانوا شباباً طيبين على الأغلب، لم يكونوا أغنياء جداً، لكن على الأقل طيبين... وليسوا دنيئين. كح كح! لا يعرفه أبوه ... ربما لا يعرف بوجوده حتى... كتبت له، لو لم أعد موجودة...

التغيير الأخير! ارتسمت الفكرة على وجه لينا فجأةً مثل الكتابة القبيحة، فمسحت من تقاطيعها كل ما يمت للبهجة بصلة، كما تمسح الكتابة بالممحاة، نحبت، وارتمت واهنة على وسادتها.

- لا، لا أريد أموت... لن أموت... أريد أحيا... مع ابني... في القرية...

اختنق النحيب. خاف تيمار أن تفقد وعيها وكاد أن يستدعي السيدة العجوز، لكن لينا رفعت من بين الوسائد رأسها فجأةً في تلك اللحظة، كانت تبتسم من جديد بشكل عجيب، بتلك الابتسامة الوديعة المثيرة.

- الآن أفزعتك... لا تؤاخذني... أشكرك مرةً أخرى لمجيئك: شيء جميل من حضرة الأستاذ... وأشكر لك عطفك على ابني! ولنقل له أنني اعترفت. اتفقنا؟

في المطبخ نظرت العجوز نظرة خبث وارتياب إلى القس المغادر وتمتمت "المجد ليسوع" وهي تهس من بين أسنانها، نزل تيمار بخطوات ساهية إلى باحة بيت البؤس، وكادت تقاطيع وجهه تهتز عندما فاجأ أذنه صوت شاب عند البوابة:

- Laudetur!

عاد بِشتا، أمضى تيمار ساعة كاملة عند المريضة، حيّاه بِشتا مع

ابتسامة حميمة مثل تحية المعارف القريبين جداً، وكأنه ليس استاذه، كأنما يتقاسمان سرّاً مشتركاً، توقف تيمار عنده، وبخلاف مبادئ فرض الضبط الصارمة للمعلمين الذين تخرجوا في مدينة زيرتس بالإمتناع عن مد أياديهم لمصافحة تلاميذهم، مد تيمار يده إلى تلميذه للمرة الثانية هذا اليوم- وشعر براحة كبيرة لخرقه هذه العادة، امتلأت روحه بالانطباعات عن زيارة المرأة المريضة، لكن لم ينفر منها وللعجب، بالأحرى أثارت فيه تعاطفاً لا يعرف منبعه، تعاطفاً شعر معه بالقليل من الذنب في الأساس، شوّشه هذا الشعور لحد ما، وفجأة انتبه في تشوشه إلى أنه يتحدث عن "المواساة الدينية" رغم أنفه، وكأن المريضة قامت بإراحة ضميرها عبر اعترافها له! لم يقو على فعل شيء بخلاف ما طلبت منه لينا من وعد، حتى أنه لم يندم على كذبه عندما رأى ملامح وجه الولد الطيب المليئة بالثناء والارتياح.

وشعر بأنه الآن يحب بِشتا أكثر من ذي قبل.

فيما بعد استفسر من الولد يومياً برقّة:

- كيف حال والدتك؟

عندئذ وجه بِشتا نظراته الدامعة إليه بصدق، غدا لهاتين العينين تعبير مختلف عما سبق، اختفى منهما كل عناد، وكل تحفظ، وغدتا حميمتين تستنجدان: نظرتا إليه كأب أو طبيب عظيم بشيء من التمسكن الأليف، نحف الولد كثيراً، كان وجهه شاحباً من السهر واشتعلت عيناه بنارٍ محمومة، أصبح يسهر ليالٍ كاملة إلى جانب فراش أمه المريضة، لكنه لم ينقطع عن المدرسة، واكتشفت عينا تيمار المتعاطفتين في وجهه الآخذ بالشحوب ملامح وجه آخر جميل وذاو.

فكر مع نفسه:- كم يشبه أمه.

كم كان يود لو بعث بمساعدة ما، ممرضة، أو خادمة من خادمات

الرهبنة، غير أنه لم يجرأ على ذلك، فماذا سيقول إخوته في الدير؟ أيساعد بالمال؟ أحس بأن مجرد المحاولة ستكون بمثابة الصقيع الذي يغطي براعم الثقة التي تتفتح من قلب هذا الطفل نحوه.

بيد أن هذه الثقة جلبت له سعادةً عجيبة، وأخذت تتحول إلى أثمن كنزٍ في حياته تقريباً، شعر للمرة الأولى في حياته بوجود شخص، كائن عزيز وضعيف يعوّل عليه بأنانية المحبة، ويمثل بالنسبة له ذلك الـ "هو"... لأنه رأى في نظرات الولد وشعر في كلماته بأن هذا الطفل الذي عانى كرجل، لا يزال طفلاً، يشعر بالحاجة إلى اليد القوية التي ترشده، والصوت المُطمئِن الذي يشجعه بينما تتمدد أمه في البيت مريضة دونما أمل الشفاء، وعليه أن يكون متماسكاً وقوياً في البيت... إنه شعور الأولاد، وقد أيقظ في تيمار مشاعر الأب، خلقت زيارته لمبنى شترلِنغ آصرة خاصة بينهما، الآن أيضاً لم يتحدث تيمار إلى پِشتا أكثر من السابق، لكن كم اختلف الأمر الآن! يلتصق الصوت وتتعلق النظرة بقلبه طوال يوم كامل، يدفئان بذكراهما هذا القلب الذي ليست له عائلة.

ثم رأى من خلال الولد الأم كذلك، وكأن عيونهما هي نفسها. وكأن عينا الأم تنظران إليه عبر وجه الفتى، وكثيراً ما يشعر بهذه السخرية الدقيقة الذكية التي رآها في عيني الأم وهي تلتمع من خلال سذاجة الفتى الدامعة، كان التشابه مخيفاً، رأى تقلبات مزاج پِشتا الفجائي، ومرحه المتوتر وكآبته العميقة ، كلها أخذها من أمه، تمعن في الفتى بين أقرانه في الباحة وهو يهز كتفه اليافع المربع بليونة جواباً على كلمة تبدر منهم، فيظهر أمام مخيلته كتف المرأة المريضة الذي نحل، لكنه ما زال نبيل الانحناءات وقد برز للحظة من بين الوسائد وهي في ثوب نومها، كالحلم العجيب طاردته هذه المرأة وغرفتها التي لم تشبه أبداً غرف بغايا الإسكندرية كما تخيلها، إنما منحته انطباع مسكن قديسة، غرفة ضيقة وبسيطة... مرقت في ذهنه

غرفة القديسة كاترينا التي زارها ذات مرة في مدينة سْيَنّا...

ذاع خبر زيارة فيرجيل إلى مبنى شترلِنغ على الفور، أخذوا يتندرون قليلاً في قاعة الطعام.

- بالطبع انتقى بعناية من سيزور في البداية! من كان يتوقع ذلك من عزيزنا المحترم فيرجيل.

قاطعهم لشِنشكي بخباثة:

- قطرات الماء تنحت الصخر بصبر.

حتى المدير قال:

- كانت سيدة جميلة، لا جدال في ذلك! أذكر عندما جاءت إلى المدينة على عربة النبيل دانتشاي، الجميع كانوا يتحدثون عنها، ما كان في كل شوت امراة أجمل منها.

قال مارك سادي:

- لم تتزوج إلى اليوم

صاح سيريل غومبوش:

- الآنسة السيدة!

- آآ، أشهر من نار على علم

قالها لشينسكي مع حركة مستهزئة من يده السمينة.

قال تيمار:

- إنها مريضة تعيش مع ابنها مريضة وفي عوز كبير.

«وتعلم فيرجيل من الإنجيل، أن المجدليات هن أكثر من يحتاج إلى المواساة...».

يهرب تيمار مسرعاً إلى صومعته في هذه الأحيان، لكنه لم يلبث هناك طويلاً، رأى سكان شوت متعجبين، أنه يقضي معظم العُصُر في التمشي ويترك كتبه المفضلة يتيمة، ما عاد يهتم للمطالعة، بدأ يعيش، بدأ ينظر إلى الأطفال في المدرسة، إلى الناس في الشوارع، إلى الثعالب في الكرمة، إلى الأشجار والزهور، كان يمسك الكتاب أحياناً، بحثاً عن سيرة حياة قديسيه المفضلين مكتوبة بطريقة أكثر عصرية، بدأ بكتاب غيبهارت؛ لكن القديسة كاترين ذكّرته على الفور بغرفة لينا فاغنر، بشحوبها وبالموت الذي يتهددها وحياتها المليئة بالخطيئة، فكر في الخطيئة والفضيلة... كان بشراً. رثى لهذه المرأة المسكينة، وعطف عليها، مثلما رآها على حقيقتها، كأم، كمريضة، بكل سيئاتها وحسناتها، بوداعتها وسخريتها، دون أن يطلق الأحكام عليها... كما يفعل الإنسان مع الإنسان... مع أن القس نطق في داخله وتساءل في بعض الأحيان: هل تفارق روح المسكينة لينا جسدها وهي تحت اللعنة؟ عذبت هذه الفكرة قلب القس الساذج ولام نفسه، لِم لم يقنعها بالاعتراف، خطرت بباله طفولته عندما عزم أن يصبح بطلاً من أبطال الإيمان، الشهداء الذين احتملوا أفظع أنواع السخرية؛ ثم فكر بأسى في حاله، كم كان جباناً... كيف تراجع... أمام ابتسامة وديعة! وعلقت في ذهنه ابتسامة لينا الوديعة الساخرة...

شعر كأنه لم ينجز شيئاً ما: بأن عليه العودة إلى مبنى شترلِنغ بدافع من مسؤوليته كقس. وخطر بباله التأثر الذي غلبه عند مروره بالممر القذر ووقوفه عند باب المحتضرة، عندما أحس بقسّيسيته... لكنه يعرف جيداً، أنه لن يذهب، ما لم يحدث تطور جديد. يا له من قس!

في أحد الأيام تخلف بِشتا فاغنر عن الحضور إلى المدرسة في الصباح، كان المعلم متعكر المزاج ونافذ الصبر طوال الصباح، غمره شعور غريب، بأن على بِشتا المجيء إليه وتبليغه مهما كان الأمر، انتظره طوال فترة ما

بعد الظهر في غرفته، برغم معرفته في قرارة نفسه بأنه لن يأتي.

في آخر المطاف عيّا صبره فانطلق نحو مبنى شترلِنغ، شعر بشيء من التأثر بينما كان يجتاز الباحة القذرة شاقاً الجمهور المتفرج أمام العيون الثرثارة التي تراه يأتي للمرة الثانية، كانت الباب مفتوحة، وقف تيمار في المطبخ حائراً، أيدخل؟ وأخيراً أمسك بمقبض الباب، قفز الفتى فزعاً من جثوته قرب السرير، تمددت لينا دون حراك على الفراش وقد غطي وجهها إلى النصف، كان الشباك مفتوحاً فدخلت عبره كل أصوات ونتانة مبنى شترلِنغ، نظر الفتى إلى معلمه بعيون جامدة، كأنه لا يعرفه؛ كانت عيونه جافة.

فهم تيمار الموقف فجأة، سأله بصوت خفيض:

- متى حصل ذلك؟

أجابه الفتى:

- اليوم... بعد الظهر...

صمت تيمار للحظة يفكر، كيف جرت العادة للسؤال في مثل هذا الوقت.

- من كان بجانبها؟

- السيدة فيتمان... الجارة...

- وأنت الآن لوحدك؟ أين ذهبت السيدة فيتمان؟

- لا أدري... ستعود حالاً.

صمتا. انقبض الاثنان لوجود الميت، أخيراً، أشار تيمار للفتى بأن يتبعه إلى المطبخ، سار بِشتا وراءه طائعاً، زاد تيمار في السؤال:

- هل عانت كثيراً؟

- لا. لم تكن واعية.

وقفا طويلاً دون كلام فوق الأرضية الباردة، لم ينظر أحدهما إلى الآخر، في الختام تكلم المعلم متردداً:

- والآن من سيرعاك؟

أجابه بِشتا بلا اكتراث، كأن السؤال لا يمسّه:

- لا أدري.

- ليس لديك أقارب؟

- لا أدري.

أطرق تيمار مفكراً. قالت لينا إنها كتبت إلى أبي الولد... لم يعرف كيف يتحدث أمام بِشتا حول ذلك.

قال بعدئذ، حتى يقول شيئاً ما:

- ستتصرف دائرة رعاية القاصرين.

طفرت دمعة من عين الفتى.

- اجلس.

هدأ تيمار من روعه، وجلس هو أيضاً على سرير المطبخ الأصفر (الذي اعتاد بِشتا النوم عليه في الآونة الأخيرة).

بعد ذلك انتظرا عودة السيدة فيتمان بصمت، كان هذا الموقف غريباً بالنسبة لتيمار، شيء ما يحدث له، فهو يبدي اهتماماً بحياة انسان آخر وعذاباته؛ لم يصدق قط أن مثل هذا سيحصل معه ذات يوم؛ كاد يشعر بشيء من الفخر...أما بِشتا فقد انتظر ما سيحصل له دون أن يفكر بشيء، ظهرت القطة وحكّت جسمها بساق الفتى الذي أخذ يمسح فروتها ساهياً.

أخيراً، هزّ القس نفسه ليخرج من خدره:

- لنصلِّ.

ثم دخل إلى الميت. وقف بِشتا عند الباب وشبك يديه وفكر:

لماذا لا يشعر بألم حقيقي متأثراً بموت أمه؛ ولماذا لم يبك بعد؟

خرجت الظلال من مخابئها ثم ارتمت على الأرضية قبل أن تأتي السيدة فيتمان، ومنها علم تيمار بعض التفاصيل:

- ستقوم جمعية الدفن بترتيب دفن المتوفاة؛ وستنجز السيدة فيتمان عن طيب خاطر كل ما يلزم لأنها ترثي لحال الصبي
- لأن هذه المخلوقة الطائشة تركت ابنها على هذه الحال! أما كان حرياً بها إدخاله مدرسة داخلية؟ أمثالها لا يصلحون لتربية الأطفال.

في الحقيقة كانت السيدة فيتمان تتلذذ كعادة العجائز عندما يرتبن أمور الوفاة؛ غمرتها القوة والحول وشعرت بأهمية دورها؛ طردتهما من الغرفة بوجه تعلوه الجدية، حتى تلبس الميتة.

كان الوقت متأخراً في المساء.

- أين ستنام؟

- لا أدري.

فكر تيمار بأن الأقارب أو الأصدقاء اعتادوا أخذ الأطفال إليهم في هذه الحالات حتى لا يناموا في البيت مع الميت، نظر إلى تلميذه وهو يفكر.

- هل تعطيك السيدة فيتمان عشاء؟

- لا أدري.

تحدث تيمار مع السيدة فيتمان، التي جلبت للفتى عشاءاً بالفعل، فأخذ يأكله في المطبخ بانصياع لكن بلا شهية، أرادت أن تأخذه لينام عندها (وستبقى هي بجانب الميت)، لكن تيمار وقد رأى المكان والأولاد القذرين

الذين كان على پشتا النوم معهم في نفس السرير، غلبه الغثيان والتقزز.

قال للفتى:

- ستأتي معي سأرتب لك محلاً تقضي الليل فيه.

أسلم الفتى نفسه ليفعلوا به ما يحلو لهم، سار تيمار إلى الأمام قاطعاً الباحة التي حل عليها المساء، حيث قاد سائق عربة يعلوه الغبار والتعب خيوله وتمرغ في العفر أطفال تعساء خدرهم اللهو الممتد حتى المغيب، سارا صامتين في الشارع الواقع عند أطراف المدينة في غبار المساء الآخذ بالترسب؛ برأس حاسر لأن النواقيس كانت تدق للصلاة، أجاب القس بصوت خافت على تحيات بعض المارة؛ عاد عمال مزارع العنب بالمعازق والمجارف إلى بيوتهم، أثار قطيع من الأبقار العجاج: وتغطت البيوت بخمار رمادي. وصلوا الساحة الرئيسية، جرجر پشتا قدميه خلف أستاذه صامتاً، كأنه كلب صغير يتبع سيده، طافوا حول المرتفع الذي تتربع الكنيسة قمته وفوقه تمثال الثالوث المقدس ليتجنبوا تسلقه، كأنهم ليسوا في عجلة من أمرهم، امتد الدير أمامهم بواجهته الطويلة وسياج شرفته العارية الحديدي حيث اعتاد القساوسة التمشي تحت الشمس بعد القداس، دلف تيمار من باب „الأساتذة" تبعه الطفل في احترام ودخلا الممر المظلم، لا شيء جعله يفهم أنه يمر في أحداث عظيمة استثنائية أكثر من تخطيه تلك العتبة التي يمنع على التلاميذ تجاوزها.

لم يصادفهم أحد على الإطلاق، خرج خادم من قاعة الطعام المضاءة يحمل في يده صحناً كبيراً في الطرف الثاني من الممر، واختفى باتجاه المطبخ. إذن، انتهى تناول العشاء؛ يجتمع الرهبان في قاعة التدخين الآن بكل تأكيد، تردد تيمار، غلب عليه حياؤه الطبيعي عندما تيقن كم هو غير معتاد هذا الأمر الذي يفعله، حتى أثناء الطريق، تزايد لديه الإحساس بالصعوبات كلما اقتربوا أكثر، لم يفكر إطلاقاً في طلب فتح واحدة من غرفة

الضيوف للتلميذ، الغرف التي يحل فيها رئيس الرهبنة عندما يزور شوت، وكذلك المدير العام، رأى تيمار أن حل هذه المعضلة يحتاج إلى مساعدة خارجية، لكن انسلاب الإرادة شلّه عندما وقف على سلم الرهبنية المألوف، -الحالة التي كثيراً ما تسيطر على الأفراد الهادئين المنطوين أثناء الأعمال التي تتطلب بعض الجهد، كما لو أنهم يتمتعون بقدر محدود من خزين القدرة على الفعل، سرعان ما ينضب. -لم يتمكن من الإقدام على طلب مشورة أحد الخدم، ولا الاستدارة والذهاب إلى فندق لترتيب مبيت الفتى، خاف من إثارة الاهتمام، من التبريرات؛ كان يشعر بأن ما يفعله هو شيء بليد وغير صحيح، لكن كان عليه الإسراع في اتخاذ القرار، سمع وقع خطى من صوب غرفة الطعام، فانطلق تيمار جافلاً يصعد السلم، إلى غرفته.

تبعه بِشتا.

أشعل المصباح وهو يتلمس، وقف بِشتا في الباب بفتور، نظر تيمار حوله، كان السرير مهيئاً، وقع بصره على الأريكة التي جعل منها قصرها ومساندها الملتوية غير مريحة للنوم.

- هل تستطيع النوم على هذه؟

أشار بِشتا بحركة لا مبالية، ألا فرق عنده.

- جرّبها، استلق عليها، هل طولها مناسب؟

استلقى الفتى على الأريكة طائعاً.

- جيدة؟

- جيدة.

في تلك اللحظة سمع طرقاً شديداً على الباب، خرج تيمار وغلق وراءه الباب الداخلية، ووقف على العتبة بين البابين. وقف قبالته تماش، الخادم (الذي كان في السابق بحاراً).

- أتطلب أن أجلب العشاء؟

- لا، شكراً، لست جائعاً، أشعر بشيء من التوعك.

عندما عاد، كان الفتى لا يزال متمدداً على الأريكة ينظر إلى نقشات السجادة بضجر.

- انهض، سوف نهيئ لك الفراش.

ألحّ الفتى بأن هذا مناسب له، مع ذلك نهض طائعاً، اقتسم تيمار وسائده وأغطيته، وعثر على شرشف بين الملاءات الفائضة عن الحاجة، كذلك تنبهوا إلى أن أحد مسندي الأريكة يمكن فتحه بذلك يكون النوم عليها أكثر راحة.

- يمكنك الآن خلع ملابسك.

خلع بِشتا حذاءه وملابسه مطيعاً واندس تحت اللحاف، لم يغمض لتيمار جفن طويلاً، شعر بأنه اقترف عملاً شديد البلادة؛ بالخصوص عنّف نفسه، لِم لم يذكر شيئاً لتماش. أما الآن فما عاد بالإمكان إصلاح الأمر، سمع تقلب الفتى المتعب على الأريكة بحذر، وسرعان ما تحول إلى لهاثٍ مستمر لين، غلب الأرق تيمار لزمن طويل، عدّ دقات الساعات المتتالية التي تسمع من البرج القريب.

وعندما استيقظ كان الظلام ما يزال سائداً، أول ما وقع نظره عليه كان قبعة بِشتا وملابسه المعلقة على الشماعة، فأثارت فيه شعوراً غريباً، كان شعوراً بالارتياح لأنه لم يعد وحيداً بعد الآن؛ شعر بنفسه وكأنه رب عائلة، كم كان بعيداً عن البشر قبل الآن، حتى عن طلابه! نظر بمحبة وحنان إلى القبعة، ثم حوّل انتباهه إلى الأريكة، لا يزال الفتى يتنفس بهدوء، أخذ تيمار يفك حروف كتاب الصلوات في العتمة، خلال ذلك نظر إلى ساعته كثيراً، في الآخر فقد صبره؛ كانت السادسة والنصف، بعد ساعة سيبدأ

قداس الطلاب، وقريباً سوف يدخل تماش ليساعده في ارتداء ملابسه، خطا نحو الأريكة وتمعن في وجه الطفل النائم، كان يشبه وجه أمه تماماً الآن، خفق قلب تيمار لوهلة كما لو امرأة نامت على أريكته، كما لو أنها لينا، وقد عادت عشرين سنة إلى الوراء، في براءة الشباب تلفلف شعره المقصوص على جبينه بلطف، وبينما كان تيمار يفكر في إيقاظه، فتح بِشتا عينيه فجأةً بوجه مبتسم، مثلما يصحو الإنسان من حلم لذيذ نصف صحوة.

ولازم هذا التعبير المنشرح والنشط وجهه، مثل انعكاسٍ لضوء أنيس، نوم هادئ لليلة كان كافياً ليمحو كل قسوة واغتراب وتحجّر بعد رؤية وجه ميدوزا القدر، عاد ليحيا حياة الطفل البسيطة، أقعى مستعداً مثل حيوان صغير ولد من جديد في جحره الدافئ من الحلم (في هذا العمر يولد المرء من جديد كل يوم، ينزع عنه أيامه الماضية مثلما الأفعى جلد العام الماضي). كان جاهزاً ومليئاً بالمحبة أمام حياته الجديدة ومستقبله الجديد، حياته الطرية تآلفت مع المستقبل بيسر، مثل محرك جديد يدور بعنفوان.

أحاطه تيمار برعايته منفعلاً وسعيداً.

- إليك الفرشاة، يمكنك تنظيف ملابسك! سأجلب ماءً لتغسل وجهك. عليك أن تنظف حذاءك أيضاً...

رد بِشتا أنه هو كان من ينظف ملابسه في البيت على الدوام، دق تماش الخادم على الباب ودخل بعدها على الفور، وسار بالخطوات الثابتة المعتادة نحو الشباك ليسمح بدخول ضوء الشمس الصباحي الطري، لم يبق شيء من ضعف تيمار في الأمس، كان مليئاً بالحيوية أمام ابنه... فهم تماش كل شيء خلال ثوان.

- لماذا لم تتفضل بإبلاغي؟ كنت سأجهز له مكاناً في المطبخ.

غرقت الغرفة باللونين الذهبي والأخضر وقد امتزجا عبر الشباك المفتوح،

يا له من صباح! ضوء الشمس، القوة!... دق الناقوس الأول يدعو الناس للقداس، اليوم عيد، يوم أحد جميل مشرق.

اعتاد تيمار قضاء الآحاد بقطع قراءاته المعتادة ليقرأ بدلاً عنها أعمال أحد الشعراء، على الأغلب أعمال فيرجيل، هذا العرّاف الإلهي الذي حلا لفيرجيلنا وصفه مازحاً بأنه قديسه الحامي، عشق هذا المنشد الاحتفالي الرقيق الذي كاد بكل فخامة الفنون الكلاسيكية أن يصبح مسيحياً، ويرى خلف التاريخ الذي يمرق بعجالة جمال الطبيعة الهادئ ويشعر بالدموع الصامتة للأشياء ويصف لعب الأطفال المرح.

قلّب هذه الفترة صفحات الكتاب الرابع، الأسطر الأخيرة التي حفظها عن ظهر قلب، الأبيات التي تصف موت ديدو[١٨]. تهبط إيريس من جبل الأوليمبوس كأنها ملاك من ملائكة الأناجيل.mille trahens varios devolat adverso sole colores –[١٩] فتحرر ضحية الحب المسكينة هذه من إسار الجسد. إيريس قوس قزح– فكّر– رسولة الآلهة ذات الملابس المزرقشة تبشّر بالانفراج بعد العاصفة، هي نفس الرسول الذي بعثه الرب في الكتاب المقدس إلى نوح بعد الطوفان... قلّب تيمار الصفحات وعاد إلى بداية القصيدة، لم يعد في وسعه القراءة بشكل اعتيادي.

at puer Ascanius mediis in vallibus acri gaudet equo, jamque hos cursu, jam praeterit illos...[٢٠]

يا لها من صورة بديعة، مليئة بالحياة:

---

١٨) ديدو حسب ملحمة الإنيادة لفيرجيل هي ملكة قرطاجة التي أحبت أينياس، غير أنها تنتحر بعد أن فارقها.

١٩) ملايين الألوان تقدح من أشعة الشمس التي تهبط من السماء. (الإنيادة، الكتاب الرابع، الأسطر 701-700).

٢٠) غير أن الطفل آسكانيوس يقتحم الوادي عليهم جذلاً، ويسبق هذا وذاك وهو على فرسه الحبلى باللهيب. (الإنيادة، الكتاب الرابع، السطران ١٥٦-١٥٧) وآسكانيوس ابن إينياس، وقد انطلقوا إلى الصيد وهم في ضيافة الملكة ديدو.

الولد الصغير الذي فرح بالفرس وأخذ يتقافز جذلاً في مقدمة جماعة الصيادين أحياناً، وفي آخرهم أحياناً أخرى.

بحث تيمار عن المواقع الأخرى حيث تتحدث القصيدة عن ابن إينياس:

عندما يفرّون من الحريق ويتعلق الطفل بالبطل بكل جوارحه.

sequiturque patrem non passibus aequis.[٢١]

تسللت الشمس من بين أغصان الشجرة الكبيرة، والتمعت على الزهور الطرية الموضوعة فوق مسند الصلاة وكأنه مذبح مزين بالزهور، ثم طافت لتصل سرير القس الضيق الذي يعلوه ملاك حارس بأجنحته المنشورة، مثل سرير طفل. نهض تيمار، بدأ يتمشى، ما عاد يتحمل مواصلة القراءة.

كان ينتظر پشتا الذي ذهب إلى مبنى شترلنغ بعد القداس، سيكون هنا في أية لحظة، لأنه طلب منه العودة ليحدثه بالأخبار.

٢١) ويلهث راكضاً خلف أبيه بخطوات صغيرة. (الإنياذة، الكتاب الثاني، السطر ٧٢٤)

الجزء الثاني

كان تماش وراء انتشار خبر تولي فيرجيل تيمار رعاية ابن لينا فاغنر اليتيم سريعاً في المدينة، السمعة شيء مهم، وطاف هذا الخبر على جناح السمعة.

- هل يوجد معلم مثله؟

تغنت كل مدينة شوت المزهوّة بنفسها، واعتبر زملاؤه في الدير أن سمعة الرهبنية لن يُنتقص منها بل بالعكس؛ وحتى د. فنسه هورفات مدير الرهبنية ذكر عمل تيمار بالإيجاب، مع أنه استثقل عدم طلب تيمار نصيحته مسبقاً (في تلك الحالة كان ليوصي بإسكان المسكين بِشتا في واحدة من غرف الخادمات). لكن عموماً استقر الرأي على أن زميلهم قد قام بعمل مثالي لا يقوم به إلا المربي الأصيل والقس البسيط المحب للناس محبة رسولية.

على أية حال تدبّر تيمار أمر سكن بِشتا في نفس اليوم، فقد زار محامي الكنيسة بُغُزي الضيف الدائم عند شرب القهوة قاعة الطعام اليوم؛ وأبدى استعداده لأخذ الفتى إلى بيته بكل طيب خاطر، لم يدخر بُغُزي جهداً في تقديم الجميل الممكن للقساوسة؛ كان رجلاً ثرياً لكن جميع مصالحه وكل حياته دارت حول علاقاته بالكنيسة، أخذ بِشتا إلى بيته بين أطفاله بشرط واحد، أن يساعد ابنه الكبير البليد لايكو في الدراسة.

أنجز بُغُزي معاملات إرث الفتى وكذلك دائرة رعاية القاصرين، عندها

تبين أن اسم الفتى الأول الحقيقي ليس بِشتا بل فيلموش، لكن لماذا أسمته أمه بِشتا؟ ربما أحبّت هذا الاسم الريفي، أو كان الاسم الآخر كريهاً بالنسبة لشفتيها...

انتقل بِشتا إلى بيت بُعْزي بعد مراسيم الدفن على الفور، لكن قبلها ذهب إلى تيمار ليعبر له عن امتنانه.

- لكنك ستبقى ابني... أليس كذلك؟

اختنق الأستاذ بكلماته بعض الشيء؛ لأن كل تقاليد مدارس الرهبان السيسترسيين تمنع الإفصاح عن مثل هذه المشاعر الدافئة أمام التلميذ، حيث يتوجب الحفاظ على مسافة مناسبة أمامه بقدر من الانضباط، وحتى طبيعة تيمار الإنطوائية كانت ضد ذلك؛ إذ شعر وكأنه يكشف عن عورة روحه... ومع ذلك أحس بالارتياح! (كم هو عسير مخاض المشاعر حتى تولد بضعة كُليمات...).

شعر بِشتا بالتأثر وكذلك بالتشرّف، فقد دغدغت رغبة المعلم هذه كبرياءه، كما لو أنها خاطبت الطالب المجتهد والفتى العبقري، صمت ولم يجب إلا على السؤال الثاني وبشكل غير حاذق:

- لِم لا... إذا ما سمحت...

اتفقا على أن يقوم بِشتا بزيارة تيمار عصر كل يوم أحد، ويذهبان للتمشي في الطقس الجميل، وبخلافه يطالعان سوية أو يترجمان نصاً صعباً، كان تيمار معلماً شديد الحماس، فتوقع أن يستلذ هوسه بالتعليم من هذه الدروس الحميمة.

- ستحل ضيفاً عليّ.

قالها للفتى، بينما كان يتمتع باستخدامه لهذا التعبير الغريب تماماً على لسانه، بالذات إن ما قاله لتلميذ من تلاميذه كان أشبه بثورة، صخور

وجدران- طبيعة وعادات- كم تعين عليه أن يكسر من القساوة الباردة حتى يتفجر هذا الدفق الروحي! تحررت الروح، هذه القوة المحبوسة منذ أربعين سنة أن تحبّ من صادفته!

باعوا أثاث وحاجيات المسكينة لينا، وطلب تيمار طائر الكناري لنفسه، هذه الحياة الصادحة المحبوسة في قفص، ليضعه في صومعة القس الموحشة... رغب في الحياة الآن، في الصوت الذي سيتحدث له عن بِشتا والمسكينة أمه، سار الفتى في يوم الأحد الأول في ممر غرف الأساتذة وبيده قفص أخضر متخوفاً من رؤية أحد له باحثاً عن الكلمات، كيف سيعطي الكناري لتيمار أبشكل هدية؟ قبل تيمار هدية الطفل، لأنه شعر بأن ذلك سيعمق من العلاقة بينهما؛ ومنذ ذلك الحين شعر بأن من واجبه أن يغمر الفتى بأنواع الهدايا: اقتنى له كتباً وانتظره أيام الآحاد بألذ الأطعمة؛ وعلى العموم وفرت له عائلة بُغُزي كل الضروريات.

اقترب تيمار من عامه الأربعين آنئذ، عابراً ذلك العمر الذي أسماه الشاعر الكاثوليكي الكبير منتصف حياتنا، المرحلة الحرجة في حياة الرجل الوحيد، بدأ تيمار يحس بفقدان الهدف من حياته في هذه الفترة بالذات، وأحياناً أخلد إلى النوم تخالطه مشاعر وحدة مريعة، لم يتخل عن صرامة نمط حياته قيد شعرة؛ كان يقرأ ويتعلم الآن أيضاً دون أن يعرف معنى التعب كمن يرى الهدف أمامه، لكنه بدأ يعي وبفزع، ما عادت الكتب تعطيه شيئاً جوهرياً، وأن دراسته هذه لا تفضي إلى أي هدف في الواقع، في شبابه، في الماضي، كان يشعر بالتطور يوماً بعد يوم، وتثرى روحه من قراءة هذه الكتب، أما الآن فغدا يشعر في قضاء الوقت هذا بركودٍ حزين فحسب.

لماذا المزيد من التعلم؟ رأى الآن بوضوح لن يكون في وسعه كشف أي سر حقيقي يستأهل المعرفة. وما هي فائدة علمه؟ هل يؤلف كتباً؟

غلبه شعور مؤلم بالعقم، ما هو هذا الشيء في روحه الذي لم يتشربه من الكتب؟ ثم ما الفائدة من إعادة كتابة ما كتبه الآخرون من قبل؟ نظر إلى الآخرين بحسد، إلى سيريل غومبوش الذي يؤلف من خمسة كتب كتاباً سادساً وهو يحس بسعادة من أنجز عملاً مفيداً وإن كان متواضعاً، حاول الترجمة: ينقل إلى المجرية سيرة حياة يوحنا الكابستراني[٢٢] من اللغة الفرنسية، لكن هذا العمل لم يجلب له الرضا.

كان لزملائه دسائسهم الصغيرة ومنافساتهم المتواضعة: كاد يحسدهم لأن حياتهم قد امتلأت بها. يا إلهي، لكل سيئة صغيرة وحسد طفيف وتكبر قليل هدف في الحياة، أما الطيبة فلا مكان لها؟ لم تشفع له صلواته، لم يجبه الرب؛ وهو لم يكن غنياً كفاية ليرضيه الحوار مع رب صامت، أن يعطي على الدوام ولا يأخذ أبداً، كان يود لو يبكي أحياناً، كما في طفولته، رغب في حصول رؤيا مثل رؤى القديسين؛ يكاد يحتاج إلى وسيط يقرب له الرب كالمنظار، عندما يتخطى المرء سن الشباب، لا يعود يقنع حتى لو حافظ على العهد الذي قطعه للرب، تجلت لتيمار الحقيقة الخفية للحياة:

لا يعيش أحد بشكل كامل سوى من يحيا من أجل الآخرين، المحبة هي السلّم إلى الله.

لم تختلف أمسيات الآحاد الأولى عن الحصص الخاصة بشيء، في الواقع لم يكن بينهما ما يتحدثان به، استفسر تيمار من الفتى عن أحداث ومطالعات الأسبوع؛ بعدها تناولا مؤلفاً كلاسيكياً، أو طلب تيمار من بِشتا قراءة دراسة من دراساته، جلس بِشتا على المقعد المخملي متضايقاً بعض الشيء، ولم يفتح فمه دون أن يسأله تيمار؛ أما هذا فكان يجدّ في البحث عن الأسئلة لدرجة التحرّج أحياناً، لذلك كانت هناك فترات صمت

٢٢) القديس يوحنا الكابستراني (١٣٨٦-١٤٥٦) ولد في كابستران بجنوب إيطاليا ومات في المجر بعد انتصار صديقه القائد هونيادي على العثمانيين في موقعة ناندورفيرفار التي تقرع الأجراس في أوروبا بسببها منتصف ظهيرة كل يوم.

طويلة، وصل بِشتا في الموعد المتفق عليه دوماً، وكان ينتظر في الممر لو وصل مبكراً بضعة دقائق حتى تدق عقارب ساعته الموعد، لم يفكر في الدخول قبل حلول الساعة أبداً، في ذات الوقت، جلس تيمار ينظر إلى ساعته متململاً خلف الباب المزدوجة، مترقباً الدقات على الباب،

مع مرور الأيام، أخذ هذا التململ يشع على كل يومه، ما عاد يستطيع قراءة إينياس العزيز عليه بهدوء في أصبحة الآحاد؛ قلّب صفحاته بعصبية وهو يفكر في كلمات الطفل التي قالها في الأسبوع المنقضي... سيتحدث معه اليوم عن كيت وكيت، -كان يخطط- وسيقترح عليه هذا المطالعة أو تلك... قاده نفاذ صبره إلى الفسحة المرتفعة الواقعة أمام المبنى، حيث اعتاد زملاؤه في الرهبنة التمشي جيئة وذهاباً بعد انتهاء القداس تحت شمس الأحد الساطعة، وهم يتفرجون على الجمهور الخارج من الكنيسة للتو؛ قبل ذلك الحين لم يظهر هناك بينهم أبداً، تماوجت أردية القساوسة السوداء- البيضاء في أناقة؛ وتمعن سوبوسلاي في السيدات بحرية، توقفت جماعات من الرجال لتتحدث مع القساوسة للحظة.

أشار بُغُزي ملوحاً بقبعته الرمادية من بعيد:

- سيكون الجو جميلاً أيها الأساتذة المبجلين!

كان تيمار يفكر في بِشتا الذي اختفى منذ بعض الوقت وبيده كتاب التراتيل الصغير متوجهاً إلى بيت المحامي. (ما هي قيمة هؤلاء البالغين المملين مقارنة بروح الطفل الطرية المتفتحة؟) فكر في أماكن يأخذه إليها للتمشي بعد الظهر، الأماكن القريبة إلى قلبه...

- كيف هو "ولدنا"؟

سأله بُغُزي، لم يقدر الحديث عن أي شيء آخر عداه، لم يثر فيه أي شيء آخر أدنى اهتمام سواه، كان يومه كله عبارة عن ترقّب متوتر، لا بل مُحرج، قبل أن تنفرج أساريره لسماع الخطوات الأليفة ودقة الباب

المعهودة. بدأ الجليد يذوب بينهما شيئاً فشيئاً، تجرأ تيمار على توجيه أسئلة أكثر خصوصية إلى پشتا، فأجاب عليها پشتا بطفولية، بدون أي تحفظ. وسرعان ما تعرف تيمار على كل ما يخص حياة الفتى وحياة بُغُزي وكل فرد من العائلة وعلى عاداتهم، على مطالعات پشتا وألعاب الأطفال، وكل ما يعرفه پشتا عنهم.

شعر الفتى بالارتياح عند عائلة بُغُزي، وتآلف مع محيطه في كل مكان على الفور بسبب قابليته على التأقلم، كان عمره اليافع يعينه على نسيان مآسي الماضي، فعاش في الحاضر فقط، وسرعان ما أحبه الجميع: السيدة بُغُزي، وهي امرأة طيبة القلب لكنها عصبية المزاج، عاملته مثلما تعامل أطفالها تقريباً؛ سوى أنها لم تهتاج بسببه أبداً مثلما كانت تهتاج بسبب أطفالها، أما الأولاد فكان قدوة لهم؛ صعب عليهم فراقه في اللعب والدرس على السواء، لذا كانوا يكرهون تيمار كرهاً حقيقياً لأنه يسرقه منهم في أمسيات الآحاد.

- هم مثل أخوتي!

وقصّ پشتا على تيمار كيف يصنع لايكو الطائرة الورقية بينما يلطخ كل شيء بالغراء.

أما تيمار فقد اندمج تماماً متمتعاً بعالم الثرثرة الطفولية، حتى أنه كاد يتحول إلى طفل، أمضوا سويعات سعيدة سوية، عاش عالم پشتا واشترك في ألعابه واهتم بأصغر أمور عائلة بُغُزي.

- عندهم بنت واحدة.

- نعم، أمّوشكا. بنت شاطرة جداً. لكنها تقرأ على الدوام... لا أستطيع أن أفهم، كيف يمكن قراءة هذه الكمية من الروايات...

ثم تحدث عن العم إمره العجوز، وهو أبو السيدة بُغُزي:

"لكنه رجل مبجل وعظيم بحق" -وعن السيد بُغُزي (الذي يقضي النهار كله في مكتبه)؛ والعمة السيدة بُغُزي... كل شيء كان جديداً بالنسبة له، البيئة المرفهة البعيدة عن العسر، الصحبة الدائمة، المزاج المرح وكل المباهج؛ وسرعان ما بدت له الحياة في مبنى شترلِنغ كأنها لمحة ضبابية غير موثقة من ذكريات طفولته، كانت طبيعته سهلة فشعر بالمحبة من حوله على الفور، وأحبه الجميع من حوله سريعاً؛ قصّ على تيمار بارتياح كبير عن مدى محبة السيدة بُغُزي له:

- أنا أيضاً أحبها بدوري كثيراً!

أضاف إلى كلامه بسذاجة الأطفال.

أخذ تيمار يشعر بالغيرة من عائلة بُغُزي، كان يفضل لو يتحدث بِشتا عن أمه الجميلة المتوفية بالكثير من الوجد الذي فاض من روحه اليافعة؛ أو عن ذكريات طفولته البعيدة، السابقة حتى لحياته في مبنى شترلِنغ؛ عن شقتهم القديمة الجميلة في المدينة، وعن الألعاب التي جلبها له الأعمام، وعن كتابه المصور الأول، وعن عمّ اعتاد أن يمتطي ظهره كالفرس، وآخر أخذه إلى السيرك وحديقة الحيوان.

- أجلسني ذات مرة على ظهر الفيل!

امتلأت ذكريات الطفولة بمختلف "الأعمام". تحدث بِشتا بعفوية وانسياب حر وببراءة، وبثقة طفولية مثلما اعتاد الحديث عن كل شيء؛ لم يكن لديه ثمة أسرار، حزن تيمار أحياناً لهذه الخفّة بالذات؛ فقد رفرفت ظلال حياة الأم المسكينة البعيدة عن العفة فوق كل المواضيع، لكن حنانه الحيي وعفته القسيّة الخجولة حبست الأسئلة في صدره... نظر متعجباً كيف تنزلق روحية الطفل بسهولة متجنبة أكثر المواطئ إحراجاً؛ وسرعان ما أصبح هو الأكثر تعصباً من بين الاثنين، مع كل تقاربهما كان يشعر أحياناً بتباعدٍ مؤلم، لا يستطيع أن يكون مع بِشتا طفلاً بما يكفي، فالطفل قريب

إلى كل الآخرين عداه، وبالتأكيد، أقام بِشتا علاقات حميمة مع الجميع على الفور؛ مع الخدم في بيت بُغُزي، مع الجراء ثعالب تيمار، مع كاتب السيسترسيين، ومن بين نُدُل الرهبنية مع تمَاش الخادم (الذي كان بحّاراً فيما سبق)، في بعض الأحيان نظر تيمار بما يشبه الحسد كيف يتحادث معه تماش بصداقة تامة وبلا تكلّف، لم يتمكن تيمار من الحديث مع تماش بدون تحرج، اليوم أيضاً ينصت تيمار بصمت وتعصب إلى حديث بِشتا وهو يمتدح آل بُغُزي في نزهاتهم الطويلة، أو -عندما ذهبا إلى الدانوب -يتحدث عن حياة الملاحين القديمة المرحة في هذه المدينة المطلة على الدانوب- وعندما يقاطعه تيمار يستشهد بتماش بصفته الخبير: قال تماش كذا... قال تماش كيت...

هكذا عاش تيمار المسكين من أسبوعٍ لأسبوع، وشيئاً فشيئاً ما عاد يهتم لشيء سوى بِشتا؛ كانت حياته المملة الخالية من الأحداث ورقة رمادية خُطّت عليها حياة بِشتا اليافعة، مثلما يخط الينبوع المنعش طريقه على الأرض العطشى، ازدهرت حياة بِشتا في روح تيمار ووعت فيها بأكثر مما كانت تعي في بِشتا ذاته؛ وغدا ما يحدث حول بِشتا الأمر الوحيد الذي اهتم له تيمار، كل مشاعره ارتبطت به، انتشر هذا الإزدهار في روح الراهب كالطفيليات التي غمرت كل حياته بظلالها تدريجياً، أخذ فكره يهتم ببِشتا على امتداد الأسبوع؛ كل الأسبوع صار انتظاراً متوتراً قلقاً لقدوم يوم الأحد الجميل الأنيس الحميم، هذا الأمل جعله يحيا ويمنح كل متعته ومطالعاته معناها، كان هذا الشرط الوحيد مقابل شيء: كيف سيتحدث عنه لبِشتا؟ (لأنه أراد غرس حياته هو في بِشتا كذلك، مثلما انغرست حياة بِشتا فيه).

حتى في المدرسة لم يرَ سوى بِشتا تقريباً؛ ما عاد الأولاد الآخرون يهمونه، لكنه لم يتحدث إلى بِشتا في الواقع سوى في يوم الأحد: فقد منعه حياء غريب عن مخاطبته في غير الوقت المخصص لذلك. انفرج توتره

قبل القداس في أحسن الأحوال، في مجلس الكنيسة عندما يكون بِشتا مساعد القس، بعد أن يعينه في لبس ردائه ويعدّل من أهداب القميص المطرز على أكتاف القس بعناية فائقة كعناية النساء، حافظ على المسافة المعتادة في قاعة الدرس على الدوام بكل حرص، لم يتبادلا هناك أية كلمة خاصة فيما بينهما على الإطلاق، طلبه إليه أمام الآخرين أحياناً بأمر جاف للحضور في موعد محدد، في استدعاء لا يصدر سوى عن الأساتذة لطلبتهم.

في أحدٍ من الآحاد لم يأتِ بِشتا.

كان هذا اليوم اكتشافاً بالنسبة لتيمار، باكورة المشاعر المريرة.

عندما دقت ساعة برج الكنيسة الساعة المتفق عليها، لم يقدر على البقاء هادئاً، فالفتى كان دقيقاً في المجيء على الدوام! تمشى في غرفته ذهاباً إياباً وعينه على ساعته دون أن يفوّت الدوس على كل مربع من مربعات الأرضية الخشبية في خطواته كمن يؤمن بالخرافات، استرق السمع منتبهاً إلى كل صوت وخطوات أقدام... وكاد قلبه أن يقفز من محله عندما سمع دقات على الباب برغم معرفته للطارق تمَاش من طريقة دقّه المألوفة، عندها لم يعد يحتمل أكثر، أمسك بمظلته وخرج أمام الدير- مع أن الطقس كان ماطراً في الخارج- لعل الخطأ كان في عدم انتظاره هناك كما اعتاد (خطر في باله).

- سيأتي الآن.

تمتم مع نفسه، سأقابله عند السلم... سأقابله عند البوابة...

آه، تغلّف العذابات حتى أكثر أنواع المحبة براءة!

كل كينونته تتركز في عينيه عندما يرى طيف فتى يمرق خلف ستارة المطر، قبل أن يتبين بخيبة حزينة، هذا الفتى ليس هو! هذا ليس هو...

ولا هذا... استقبل بجفاف تحيات طلابه له، كأن كل واحد منهم حرمه من أملٍ جديد، لم يذعن لتعرضه إلى الحرمان من السلوى الوحيدة ومما كان ينتظر طوال الأسبوع.

- تأخر قليلاً... سيأتي...

علل نفسه بهذا الأمل، أراد أن يفكر بشيء آخر، بدأ يعدّ الأرقام في نفسه، أو يردد الصلوات، عاد إلى صومعته وأخرج كتاب الصلاة: لكنه عجز عن شدّ انتباهه إليه، عندها خرج إلى الشارع مرة ثانية، خطا خطوات قصيرةً بسرعة وتوتر، دقت ساعة البرج من جديد.

- لن يأتي، ما دام تأخر حتى الآن في المجيء.

قال لنفسه بشيء يشبه الارتياح بعد زوال آلام الانتظار. والآن اعترف أمام نفسه، بأن تصرفه مضحك، لكنه شعر بعدم قدرته السيطرة على نفسه.

- اغفر لي يا رب، أحب أحد مخلوقاتك لدرجة كبيرة، لكن هذه مشيئتك، وأنت من خلقه ليكون أهلاً بمحبتي، وأنت ترى يا ربي نقاء محبتي، فهل يوجد أنقى من محبة المربي للشباب؟

لكن ما سبب تخلف بِشتا؟ هل المرض، وهو الذي لم يمرض أبداً؟ أم حصل طارئ... أو مصيبة؟ أو لربما نسي المجيء بكل بساطة... لعله يتمتع باللهو عند آل بُغُزي... أو عندهم ضيوف... ذهبوا في نزهة... لربما نسيه ابنه، غمره غضب ويأس لهذا الاحتمال؛ ومالت أفكاره نحو ذلك برغم شعوره بلا واقعيته: في آخر المطاف ما الذي يمكنه أن يمنحه البروفيسور الممل العجوز لبِشتا؟ خلال ذلك مرق في ذهنه احتمال مخيف آخر، شيء فكر فيه مرات عديدة: كتبت لينا إلى أبي الولد قبل وفاتها؛ فجاء هذا ليأخذ طفله...

لم يتحمل أكثر من ذلك، شعر بأنه لن يقدر على النوم بطمأنينة ما لم

يذهب إلى بيت بُعُزي ليعرف السبب، خجل قليلاً لأنه بهذا سيفضح قلقه؛ وعدا عن ذلك لم يكن من زوار عائلة المحامي، وتطلّب من طبعه الخجول المنزوي وإرادته الضعيفة عزيمة حقيقية كبيرة للقيام بمثل هذه الزيارة، لكن قلقه تغلّب الآن على كل مشاعره الأخرى، سار يدمدم تلقائياً بالصلوات في شارع المدينة الصغيرة كمن يقوده قدره، كمن تسيّره قوة أقوى منه.

وجد پِشتا يلعب الشطرنج مع أيمّا المراهقة، أصابه زكام فلم يسمحوا له بالخروج في هذا الطقس الممطر، كان الفتى سعيداً وفخوراً بسبب الزيارة الموجهة إليه بالذات: حار في أي مقعد وثير يُجلس تيمار، راقب الأستاذ ولده بسعادة في البيت الجميل، وهو يثرثر ببهجة وألفة محاولاً مغازلة البنت بشكل أخرق كعادة الفتيان؛ فامتلأ قلبه الأبوي كتعويضٍ سرّي عمّا حصل، عاد إلى صومعته ضاحكاً من نفسه وقد غمرته طمأنينة كبيرة.

بيد أن قلقه عاد إليه مرات على الدوام منذ ذلك الحين، لم يعد يشعر بأن پِشتا ملكه لوحده مثلما كان الأمر في السابق، آه لو كان ابنه! ففي الوضع الحالي يمكن أن يحصل أي طارئ، لاحقه طيف الأب المجهول أحيانا؛ "أي أبٍ هو؟" فكّر وقد غلت في أعماقه النقمة، وفي نفس الوقت غمره ارتياح سرّي، من الجليّ أنه لا يود معرفة شيء عن طفله... ومع ذلك أفزعه حق الأبوة بالدم الذي مثّل تهديداً؛ كان يغار من الحياة الضبابية التي أنجبت الولد، لكنه كان يغار أيضاً من الحياة المرحة التي نما فيها الطفل؛ ما عاد هذا العالم الصغير يدور حوله لوحده!

تغير پِشتا. تشبع غروره الطفولي تماماً؛ فما عادت زياراته لأستاذه تعني له حدثاً مثيراً، بدأ يذهب بدون رغبة ويتأخر في المجيء، ويجلس متململاً ساهياً أمام تيمار، ليس لنقصان في محبته لمربيه؛ بل لأنه كان عاجزاً عن تمويه سهوه أو مزاجه السيء لما تحلى به من صراحة ساذجة،

أخذ تصرفه يزداد تحرراً، فأخذ يطلق ضحكات رنانةً على قلق ونفاذ صبر تيمار أحياناً، وحدث كذلك أن تنصل من لقاءات يوم الأحد متذرعاً بتراكم الدروس عنده، وعندما لم يقتنع تيمار بذلك وثبت له أن عذر الفتى هو مجرد عذر، لم يتستر على السبب الحقيقي:

- أخاف أن يملّني أستاذي إذا ما كنت بجنبه على الدوام.

قال ذلك بشكلٍ لطيف وطفولي وبصراحته المعتادة، بحيث صعب الغضب منه، غير أن تيمار فكر في عائلة بُغُزي التي عاش بِشتا بينها يوماً بعد يوم... بالطبع، لا يستطيع أن يوفر له ذلك القدر من اللهو في غرفته المليئة بالكتب اللاتينية أو أثناء نزهاتهم الرتيبة، مثلما يوفره ذلك البيت المرح والأطفال النشطين وأيمّا الصغيرة الجميلة قارئة الروايات.

فكر في هذه العائلة بشيء من الحسد دون إرادته، على الخصوص أثارته إيمّا التي وجد فيها حب الفتى الأول، دون أن يكون لذلك أساس تقريباً، فالولد لا يزال طفلاً بعد بشكل كامل، ومع ذلك أحس تيمار بأن الحياة تتطلب المرور بالشباب الكامل وسرعان ما سيكون لكل شيء آخر أهمية أكبر من صداقتهما وكتبه القديمة، فكر في ذلك باكتئاب شديد، نظر إلى الفتى وهو يجلس شارد الذهن في المقعد المخملي المحكوك، من يدري أين طافت أفكاره الطفولية، هذا المزاج العكر انتقل إليه هو الآخر، لم يخطر بباله أي شيء مما قد يجذب اهتمام الفتى، جلسا سويةً ضجرين تتحلق حولهما الأفكار المزعجة، وكثيراً ما شعر الاثنان أن هذه اللقاءات غدت ثقيلةً عليهما؛ لكن تيمار لم يقدر على الاستغناء عنها مع ذلك، لو عادت الثقة القديمة بينهما لبرهة، كلما طاب له ذلك وغدا مبعث سعادة لمدة من الزمن، في إحدى المرات وجد بِشتا تيمار مريضاً، فاستيقظت فيه كل الرقّة المولودة معه، حادثه وواساه وبقي عنده لوقت متأخر في المساء، وعاده في اليوم التالي أيضاً بعدما أكمل دروسه، ومنذ ذلك الحين أخذ

تيمار يشكو للفتى من التوعك، دون أن يكون لذلك أساس حقيقي في بعض الأحيان حتى يستدر هذه الرقّة الآخذة في الندرة.

شعر تيمار بالذل مقابل صديقه الصغير أحياناً، لأن الفتى كان بينهما من يحتاج الآخر بدرجة أقل، هو الأقوى، كثيراً ما جعل بِشتا تيمار يشعر بذلك دون قصد وبقسوة طفولية.

لم يشعر بأدنى احترام للمنزلة، فعندما أصبحت صداقته مع تيمار شيئاً معتاداً- وحتى تيمار اعتادها، كالأب- تعامل معه مثلما اعتاد الأولاد الأذكياء والمزاجيين التعامل مع آبائهم، بمحبة هازئة ومتعالية بعض الشيء. فهذا كل ما طمح إليه تيمار- وهو أن ينظر إليه كشخص قريب تماماً كالأب- أما الآن فقد تألم لذلك! إذ ما هو الأب بالنسبة للفتى؟ قطعة أثاث قديمة عزيزة، لا غير؛ وكل شخص عداه يثير فيه اهتماماً أكبر، في بعض الأحيان يشعر تيمار بأن روحه قد مزقتها السكاكين الماضية عندما يقر الفتى بصراحة بريئة لا يعيها هو ذاته، لا يعني له هذا القس- المعلم شيئاً كثيراً، لم يجعل بِشتا سرّاً من اعتباره الوقت الذي يمضيه مع تيمار كثيراً، واجتهد في المساومة على تقليل الفترة بشكل مكشوف؛ ولم يكن بيد تيمار، كأي أب ضعيف، وسيلة لفرض إرادته؛ في بعض الأحيان كاد يتوسل إلى بِشتا: -نعم، تذلل أمامه- وأمام نفسه! لكن كيف يزعل منه؟ كان الفتى جميلاً، بترفعه الودود المرح وبعناده الطفولي وبطبعه الوديع المتهكم، مما ذكره بالمسكينة لينا على الدوام! في بعض الأحيان كان متقلب المزاج، مثل آنسة مغناج، لكن بودٍّ أكبر، كلما تعاظم تفوقه عليه، كلما أحبه أكثر غائصاً في وحل ضعفه! أليس هو ابنه الروحي؟ فتلك الشجرة تنمو أسرع من قريناتها متسامقة إلى العُلى هي التي تمتص من تربتها قوة أكبر! هل هناك تلميذ أكثر ذكاء وأعظم موهبة من بِشتا؟ ما في وسعه أن يفعل إذا ما انقضت حاجة بِشتا إليه؟ ما تعلمه منه لن يمحيه أي شيء.

رأى تيمار في ابنه وريثه الذي يواصل دربه؛ مضى الوقت وازداد تفتح المستقبل الواعد أمام التلميذ... أخذ هذا الطفل ما جمعه تيمار طوال حياته كلها بشكل جاهز وفي وقت مبكر، وسيستعمله حتماً للوصول إلى أهداف جديدة ورائعة، لعله سيصبح عالماً، مفخرة الرهبنية التي ربّته، مفخرة الوطن كله... هام بِشتا بالعلوم، بكل شيء، كانت السيدة بُغُزي أفضل سيدة في العالم، وأبناء بُغُزي أعز الأطفال، وأيمّا أجمل بنت، لكن أعظم شيء في الحياة كان العلم: امتص دماغه الشره العلوم مثلما تمتص الزهرة ضوء الشمس، ومع كل تسامقه الطفولي تعجب بِشتا لسعة علم فيرجيل:

من يعرف مثله علوم العصور السالفة؟

تأمل تيمار في تلميذه، وحسد بِشتا على حماسه! لكنه شعر بالعلم جافاً دون خيال الفتى الذي كان قادراً على تحويل الألوان والأرواح والمصائر إلى نسيجٍ متلألئ، يوماً بعد يوم، أصبح بِشتا المعنى الوحيد لعمله، وثمرة جهد كل حياته، كل شيء حصل من أجله، ليس من دون معنى! وجاءت سويعات قرّب فيها الحماس إلى التعلم الأستاذ وتلميذه، مثل مدمنين على نفس العادة، لم يحب بِشتا التعلم سوية مع تيمار، لكنه كان مغرماً بالحديث عما تعلمه!

بلغ بِشتا السن التي يتبدى فيها أمامه العقل وقوة الفكر وجلاله فتعمي أنواره روح الفتى، فينظر إلى كل شيء من خلال وجهة النظر هذه، ويحاكم كل شخص وفقاً لها، قلة هم من تصدوا لمثل هذا الإختبار في شوت، حتى بين الأساتذة، تيمار شأن مختلف؛ لكن ما الأمر مع الباقين؟! تيموت سوبوسلاي معلم الجغرافيا الأنيق؟ الذي يخرج من كم عباءة القسس البيضاء الناصعة يده التي اعتنى بنظافتها جيداً ليؤشر بها، كان ينشد الأسماء اللاتينية الجميلة من الكتاب المدرسي بإنفعال أجوف:

Lamellibranchiata، أي "طائفة صفائحية الخياشيم". أو سانيسلو بوغار الصغير، الذي اعتبر غناء القواعد اللاتينية على لحن أغنية شائعة إنجازاً تربوياً مهماً؟ أم لَشينسكي ذو الوجه المحمر، الوطني الغيور الذي كان السؤال التالي المفضل لديه:

- ما هو شكل خريطة النمسا؟ -

وهو السؤال الذي يتوجب الجواب عليه كما يلي:

مثل خارطة المجر، وقد رميت حولها الزبالة...

تيمار كان مختلفاً، بدا عليه أنه رجل الفكر وقد تميّز في اختلافه النبيل عن الدير المليء بالمؤامرات الصغيرة المحبوكة والمدينة الصغيرة التي غرقت بالنميمة، وهو أمر أعجب بِشتا أكثر فأكثر، كلما ارتفع هو الآخر عن مستوى محيطه شيئاً فشيئاً، مر الوقت وهذا ما أفاد تيمار، وقف بِشتا حائراً أمام أقرانه، بدأ يتخذ موقف الازدراء الساذج مقابل الجميع؛ كان يحب العالم ويستخف به في نفس الوقت؛ ما هذا الذي يدور حوله؟ قضايا الخادمات وتقولات المدينة، الأسئلة القانونية للعم بُعُزي، الروايات العاطفية لأيمّوشكا وعشق البليد لايكو لكرة القدم، كل هذه بدت له أموراً ضئيلة الشأن لناظريه، هو الذي قرأ كتباً تتحدث عن سياسة يوليوس قيصر ونشأة الكنائس المسيحية الأولى.

- لا أفهم ذلك أنا الآخر، كيف يمكن العيش بهذا الشكل، بلا اهتمامات سامية.

في هذا توحد الاثنان، وتوافقا، الطفل الذي امتلأ عقله بفضول مقدس وطموح نقي للترفع، والراهب المنعزل عن العالم بحياته الخجولة المنغمرة في الكتب، شعر الطفل الآن بأن الراهب من يفهمه بشكل حقيقي؛ فشكى له أولى خيبات حياته اليافعة وأولى اكتئاباته الكبرى التي تفتتح بها مرحلة الشباب، هذا العدو الغادر الذي يقتنص الطفل من بين جموع

المشاهدين الهادئين ويرميه على المسرح الدامي المرتبك... شكى فوران أول آراءه في الحياة، لم يخمن هذا الولد البريء الذي ربّاه القساوسة أهمية هذه الاضطرابات، أما تيمار فمنعه حياؤه من التطرق إلى مسائل حساسة خلال النقاش بينهما.

قال الراهب دوماً:

- العمل! تجنب الدقائق الفارغة، فخلال الدقائق التي لا يشتغل فيها العقل تتبرعم الأفكار السامة التي تصيب الإنسان بالشلل، مثل النبات الضار في الأرض المُراحة، وفتح الكتاب على نص يوناني صعب؛ ونسي الاثنان نفسيهما وانغمرا في هذه الرياضة الفكرية القاسية وانشغلا بتنمية العضلات الذهنية.

يا لروعة التربية، يالروعة عيون التلاميذ الواعدة المفتوحة المتسمرة على المعلم! تمتع تيمار بشكل كامل بهذه الروعة التي لم تكن احتفالاً بالعطاء الروحي والفكري فحسب، بل أيضاً أعظم إرضاء للغرور الإنساني في نفس الوقت، أكثر شيء تمتع به الأستاذ لربما كان الرؤية الجديدة للفتى وأحكامه التي لم يطالها الإفساد، أما الفتى فبعلم وحكمة أستاذه، في بعض الأحيان جلسا منكبّين فوق الكتب حتى ساعة متأخرة، فتأخر الإثنان عن موعد العشاء، وفي أحيان أُخرى قاما بجولات في الجبال المبثوثة بشجر السنديان لا يمُلّ منها، تخللتها الأحاديث التعليمية؛ وكان لتيمار مصطبة مفضلة في المنطقة المسماة بوابة دَمير، فوق الجبل الكبير كثيراً ما جلسا عليها حتى المغيب، حمت مخيلتهما الساذجة، وتصاعد صوتاهما؛ طارت السُمّان مفزوعةً ورددت الجبال الكلسية صدى كلماتهما، تناقشا، دافع پِشتا عن موقفه بحرارة وحماس، فكّر تيمار في الشبان من الإغريق، في طلاب سقراط.... في المؤمنين الجدد أيام المسيحية الأولى.

بيد أن پِشتا لم يكن متواضعاً مثل المؤمنين الجدد أيام المسيحية

الأولى، تشجّع كثيراً، أعلن آراءه دون تردد، وكانت آراؤه تتناقض مع فهم المعلّم في الكثير من المرات، كان تعارضه حامياً، أقرب إلى الدفاع، كان بالأحرى موجهاً إلى نفسه أكثر مما كان موجهاً إلى أستاذه: كما لو شعر بالحاجة إلى إقناع نفسه بإمكانية بلورة موقفٍ خاصٍ به أولاً، كلما شعر بتأثير تيمار أكثر فأكثر، كلما تعاظم رد الفعل هذا عنده، وصل الأمر عنده بعيداً، فيكفي أن يكون لتيمار رأياً في شأن ما حتى تسيطر القناعة المضادة على بِشتا بدون مقاومة.

بمرور الوقت ازدادت جرأته، لم يسكت حتى عن آخر ما لديه من شكوك، وكثيراً ما ارتاع تيمار بشكل حقيقي لما تجرأ هذا الطفل على القول بين الجدران العتيقة الجليلة لدير الرهبان السيسترسيين في شوت، تحدث عن مطالعاته واكتشف جماليات وحقائق عند كتّاب كان مجرد ذكر أسمائهم يكفي لارتعاد القساوسة، لنقلها بصراحة، كان يثيره، ثم يرضيه بقهقهة طفولية لطيفة... ما كان بيد البروفيسور المسكين من حيلة: أحب عديم النفع هذا، ولو خرجت مع ذلك من بين شفافه أحياناً كلمة عتاب جادة أو تنبيه لا يتوانى بِشتا عن الدفاع عن موقفه.

يقول بِشتا:

- لا نحكم على الشيء دون أن نقرأه.

- Audiatur et altera pars[٢٢]

بذلك لا يبقى أمام تيمار سوى أن يتناقش في ذاته مع الشيطان الذي همس له عندئذ بأن الحق مع الفتى...

شيء واحد أكيد، لم يزعل تيمار، لا بل سرّ لثقة بِشتا به، إنها صلة وصل جديدة بينهما، أمام مَن يمكن للفتى أن يتكلم بهذه الصراحة سواه؟

---

٢٢) ليُسمع الطرف الثاني كذلك.

كانا صديقين؛ أخذ بِشتا يسخر من باقي أساتذته أمام تيمار علانية؛ مثلاً قال له:

كيف يأتي مارك سادي الحساس المهووس خوفاً من المرض إلى الحصة، فوق معطف القس سترة، فوق السترة وشاح، فوق الوشاح معطف، فوق المعطف وشاح ثانٍ، وأخيراً معطف شتوي... وأول عمل يقوم به هو النظر إلى المحرار، فيخلع من الأغلفة التي يلتحف بها بقدر عدد درجات الحرارة التي يقرأها في المحرار...

مثل هذه الأشياء، لكن هذه بذاتها كانت ثورةً بالنسبة لنظام ضبط مدارس الرهبنية السيسترية الصارم، نمت في روح تيمار مشاعر حرية غريبة، مذنبة، وشعور بالاستعلاء المذنب على إخوانه في الرهبنية، استمتع بتساقط حواجز الانضباط الموجودة بينهما بشيء من السرور، ذات مرة قام كناظرٍ للصف بزيارة حصة سيريل غومبوش؛ حار الأولاد في الجواب فأخذ المعلم العجوز المسكين يهز زناره في غضبه العاجز:

- يا صغاري، لست إلهاً!

عندها ضحك بِشتا من بين المقاعد نحو تيمار، وأجابه تيمار بضحكة هو الآخر، كان شريكاً للفتى في قلة الاحترام. تعجب أحياناً، من أين أتى ربيب السيسترسيين الأتقياء بكل هذا التهكم والتحرر؟ لم يمس بِشتا أمور الدين في نقاشاتهما على الإطلاق: فقد منعه ذوقه وخجله عن ذلك أمام القس؛ بيد أن الأب الروحي الحريص والقلق أحس حتى بدون الكلمات أن نور الإيمان ما عاد يشع بهدوء وتواصل من خلف العناوين الملونة والمعقدة للمعرفة التي اكتسبتها هذه الروح الفتية، نظر إلى بِشتا خلال مراسم اعتراف التلاميذ الإلزامية، سقطت أشعة شمس العصر مائلة في الكنيسة الصغيرة، وامتدت كراسي الاعتراف البنية بصفين مثل أبراج حراسة سقوفها مزخرفة بالنقش، واصطف التلاميذ الصغار المهمومين خلف

الحواجز الخشبية، لم يركع بِشتا أمام كرسي تيمار أبداً، بل اختار مارك سادي الشديد بارز عظام الوجه في بادئ الأمر ليعترف له، ثم سوبوسلاي المريح الميال للدنيويات، مع ذلك شعر تيمار بالمسؤولية عن تقديم كشف الحساب عن هذه النفس؛ ولام نفسه لأنه لم ينظر عاجزاً إلى تطور ونمو الفتى فحسب، بل دفعه إلى الدرب المعاكس بدون إرادة منه وبسبب تأثيره المتذبذب... يا لها من مسؤولية عظيمة هذه التربية!

ذات صباح اندفع معلم الدين مارك سادي بين زملائه القساوسة بعد الحصة الأولى بغضب شديد:

- انتبه يا سيد لابنك العزيز! انظر، ما الذي يقرأه!

كان في يده كتاب مجري جديد، أثار اهتماماً كبيراً وقتها؛ مؤلف لكاتب يهودي، عبارة عن مقالات مليئة بالذكاء والحكمة، كتاب كتب بنغمة متحررة ومتشككة، مؤلفه – فيلموش فيتاني – نموذج للذكاء الصحفي العصري، الذي يعرف شيئاً عن كل شيء، ولا يأخذ أي شيء بجدية تماماً، له كلمة في كل شيء لكن لا يعطي رأياً في أي شيء، لا بل يرفع من اللا رأي إلى مصاف المبدأ ويجعله الشرط الوحيد للذكاء المترفع، انتقدت الصحف الأدبية الكاثوليكية هذا الكتاب في مقالات طويلة مستميتة لاستخفافه بأشياء مقدسة، مترجماً كل شيء عبر أنصاف معارفه الصحفية وبصورة شريرة، على الطريقة اليهودية، منطلقاً من منطلقات "جمالية" خفيفة، وتعامل مع المذهب الكاثوليكي في عبث، فاتحاً أبواب الشك الفارغ والقاحل بلا مبدأيته الحزينة، مارك سادي صادر هذا الكتاب من بِشتا خلال حصة الدين.

حتى تيمار شعر بالانزعاج من الأمر، فقد استطاع تحمل قراءة بِشتا كتباً جادةً وعلمية، مثل رينان أو تينيه فيما لو كان فكر هذه الكتب يتعارض مع فكر الكنيسة، هذه الكتب مع ذلك تنبض بقوة المحبة الحقيقية،

فالاحترام الحقيقي للعلم والتعامل المقدس الجاد مع الكون كلها أخلاق تمنع الفتى من الحياد عن الطريق الصحيح، لكن الكتاب السيء المكتوب بأسلوب الصحافة، الكتاب الذي يغلف مؤلفه جهله بالاستعلاء، ويتحدث بوقاحة عن القضايا الكبيرة التي ربما تعرف عليها للمرة الأولى في افتتاحية صحيفة نمساوية في ذلك اليوم! كيف يتغذى ابنه الذكي والجاد الصغير من هذا الكتاب!

- قد لا يعرف أي كتاب هذا الذي وقع بيديه!

- يمنع قراءة أي كتاب لا يعطيه الأساتذة، ثم ألا يوجد في مكتبة اليافعين ما يكفي من الكتب؟ السيد يعطيه كتباً حتى من مكتبة الأساتذة، وما فائدة القراءة الكثيرة، Qui proficit in literis, et deficit in moribus...[٢٤]

- Plus deficit[٢٥]

وافقه تيمار، لكن فتى مثله، في ذكائه ومواهبه...

- العقل هو Donum anceps هدية ذات حدين.

- لم تحدث شكوى على أخلاق بِشتا فاغنر قط...

- هل هناك حاجة إلى شكوى أكبر؟ يقرأ هذا الكتاب خلال الحصة! خلال شرحي الدرس! سأذكر هذا في اجتماع الرهبنية.

كم حسد تيمار ضيّق الأفق المتحمس هذا! وكم خجل من ضعفه وليبراليته! ألا يستحضر هو ذاته أكبر الأخطار الروحية لمن يتوجب عليه حمايته كما لو يحمي حياته؟ لأن الأمل في تحقيق كل مخططاته المجهضة يكمن في بعثها للحياة عبر الفتى... تراءت أمامه أحلامه القديمة: سيصبح

---

٢٤) من يربح من القراءة [الكثيرة] على حساب أخلاقه، [وتكلمة المثل اللاتيني: ...سيخسر أكثر مما يربح]

٢٥) يخسر كثيراً

بِشتا رجلاً عظيماً، مفخرة الرهبنية، أمل الوطن... لكن أي امكانية تواجه احتمالين: فكر تيمار في ترتوليان[٢٦] الفتى المتحمس المندفع، بنظرته الثاقبة وفورانه، هو الذي كان أكبر أمل للكنيسة وأوسع لاهوتييها علماً، أصبح زعيماً للهراطقة، غدا الهرطقي الكبير...

- وهل أعجبك الكتاب؟

سأل بِشتا الذي لم يظهر عليه الانزعاج من التقريع على الإطلاق.

- أعجبني.

قالها بِشتا في تحدٍ؛ ثم شرح كلامه:

ليست الحقيقة ثمينةً لوحدها، بل كذلك المشاعر والإمكانيات، أن يفتح رجل غير متخصص، صحفي، بجسارته وتجرده عن الانحياز آفاقاً جديدة ويعكس تجاه مسألة ما انفعالات أكثر حيويةً من العلم ذاته: لأنه يعطينا ردود فعل الحياة في مقابل العلم، يؤثر العلم عليه بالمقدار الذي يكون فيه العلم قابلاً للحياة...

أصغى تيمار مندهشاً لترتوليان الصغير هذا (كم كان فتىً متواضعاً مثالياً فيما مضى).

- تربيتك!

قالها تيمار لنفسه.

بعد الظهر انعقد اجتماع الرهبنية حيث قدم مارك سادي شكواه، ابتدأ كلامه:

- لعله ليس من واجبي انتقاد طريقة تربية أحد زملائي، لكن يتعين علي القول أن رعاية الغرور الفكري عند الشبان غير الناضجين لهو أمر خطير، والواقعة الحالية إثباتٌ مؤسف على ذلك، هذا الولد

٢٦) ترتوليان (١٥٥-٢٢٥م) كاتب روماني مسيحي هاجمه أغسطين ووصمه بالهرطقة.

عاش منذ طفولته في بيئة سيئة...

ورمى الكتاب على المنضدة الخضراء بعنف.

أخرج لَشينسكي لغدوده المحمر من ياقة القساوسة البيضاء بغضب:

- يا له من كتاب شائن! أهان الوطن...

- أية عقوبة يقترح السادة الزملاء إنزالها إذن؟

استفسر فنسه هورفات، رئيس الدير.

- خرج عن تقاليد التواضع، فليتذلل طائعاً. عليه أن يعترف بذنبه علانية أمام الطلاب!

شعر تيمار بامتقاع وجهه، سيكون من الصعب إقناع بِشتا القيام بذلك.

أنهى رئيس الدير الإجتماع بحركة عامة من يده؛ بعد أن نبه السادة الأساتذة إلى الحذر من تشجيع التلاميذ على قراءة المطالعات الدنيوية أكثر من اللزوم، وإلى تجنب الانغماس في الخصوصية الزائدة عن الحد معهم، لأن هذا سيقوض من الهيبة في كل الأحوال، انطلق سيريل غومبوش على الفور باحثاً عن ورق اللعب في الغرفة الثانية.

في اليوم التالي تمشى بِشتا في حديقة دار بُعُزي في استثارة جيئة وذهاباً، لا، لن يقدم الاعتذار مع ذلك! ولن يقرّ بأن كتاب فيتاني هو كتاب سيء ما دام يعتبره جيداً! في إمكانه تقدير ذلك أكثر من هذا الأثول مارك سادي! بلى، لماذا أزوّق الأمر، استعمل هذا التعبير البعيد عن الاحترام، "أثول". نظرت أيمّوشكا إليه بعيون ملتمعة: كم بدا جميلاً وذكياً وشجاعاً في تحديه الطفولي! نصحه بُعُزي نصيحةً أبوية:

ليس من الحكمة التحرش بمن هم فوقك، الإنسان الذكي يحتفظ برأيه لنفسه.

كان هذا الرأي الهادف إلى التهدئة زيتاً يصب على النار، العم إمره

بُغُزي، جد الأطفال، التزم جانب بِشتا هذه المرة، تقافز وهو تحت العريش من وراء غليونه الكبير كالطفل العجوز مشجعاً الولد بأيديولوجية الشيوخ المدافعين عن الاستقلال:

- لا تتنازل، بِشتا! تقمص الشيطانُ القساوسة، حتى يتوفي طردوه من المدرسة.

دق قلب بِشتا بقوة: وقف تماش خادم الدير في باب حديقة الدار، كان يوماً سيئاً على تيمار، فقد علم برفض بِشتا تقديم الاعتذار، فأرسل في طلب الفتى إليه، أجاب بِشتا بهزة رفض عصبية من كتفه، لكنه وضع معطفه عليه مع ذلك:

- سأذهب إلى فيرجيل العجوز

قالها بطفولية متظاهراً بالصداقة مع الرجل.

انتظره فيرجيل على أحر من الجمر، ما العمل لو أصر على عناده؟ إنه عصيان علني، كاد يسمع صوت لَشينسكي:

"ليذهب إلى مدرسة ثانية!"

كيف سيتمكن من الحفاظ على صداقته مع المتمرد الصغير؟

توسل إلى الفتى بعصبية، إلا أنه بقي مصمماً.

- تفضل اطلب مني أي شيء، إلا هذا!

كادت عيون تيمار تمتلئ بالدموع، خطرت بباله خطته العزيزة، حيث أراد أخذ الفتى معه إلى إيطاليا في العطلة، رحلةً دراسيةً بشكل صارم تستغرق كل الصيف، يكونان سوية مع بعضهما البعض كأنه ابنه تماماً... هل انتهى ذلك؟ فعاد يتوسل إلى الفتى من جديد ملوحاً بمكافأة الرحلة الدراسية الصيفية لعلمه بتعطشه للمعرفة ورغبته في التعرف على العجائب الأجنبية، إلا أن بِشتا استقبل الخطة بتجهم، وأعلن أنه لا يود السفر مع

تيمار، لأنه فعل الكثير من أجله لحد الآن بل أكثر من المطلوب، وهو لا يرغب في قبول المزيد من العطف لأنه لا يستطيع أن يكون ممتناً بهذه الطاعة التي ينتظرون منه تقديمها، وازدادت حمأته في النقاش فقال أنه لا يود أن يصبح مخلوقاً صنعه تيمار، فلا يرغب في رؤية إيطاليا عن طريق حسنة يقدمها تيمار له، بل سيذهب لرؤيتها بعينه هو وعلى نفقته هو أو لا يذهب على الإطلاق!

انتصاب رأسه وحركة كتفيه المعروفة والشرر في عينيه كلها أكدت كلامه الملتهب، أحرقت القساوة الطفولية قلب تيمار، ابنه يود لو يبتعد عنه قدر المستطاع، ويرفض اليد التي يمدها إليه لتقوده، يتجنبها، في المقابل من هذا الشباب الجميل والنبيل هبطت عليه فجأة كل الوحدة التي يعانيها في حياته، بدأت دمعات تنضغط في عينيه، وفهمت ملامح بِشتا فجأة اللمعان المؤلم في عيني أستاذه.

لان قلب الفتى فجأة، كالشمع الطازج من النسمة الساخنة، تطايرت كلماته في الهواء مثل الأوراق الصغيرة التي تهب عليها الريح؛ لم يرَ أمامه سوى الرجل المدمع العيون، فغمره إشفاق دافئ، تحشرجت كلماته ونسي كل شيء، ما عادت له من رغبة في تلك اللحظة سوى مواساة الكهل المتألم فيرجيل مهما كان الثمن، يفعل أي شيء يطلبه منه، ليس بسبب الخوف من العقاب، وليس من أجل السمعة أو المسؤولية، ولا حتى القناعة بالتأكيد، بل لأن صديقه الكهل سيحزن لو لم يفعل ذلك.

- سأكون نذلاً إن لم أقم بذلك!

قال ذلك في البيت للعمة بُغُزي القلقة عليه، كما لو كان يؤمّن طريق الانسحاب، بيد أن صدغاه كانا ينبضان بشدة، شعر مقدماً بثقل الإهانة التي سيتعرض لها في الغد، أوجعته حنجرته وغلبته الحمى، ففرشت له العمة بُغُزي السرير.

في الصباح بحث تيمار في قلق عن الرأس الأسمر الأليف بين التلاميذ الراكعين في الكنيسة أثناء القداس الذي يسبق الدراسة.

كيف سيمر هذا المشهد المحرج؟ ألا تنتفض كبرياء الفتى في اللحظة الأخيرة؟

لم يكن پِشتا في مكانه، وعندما وصل إلى قاعة الدرس توضح له أن پِشتا لم يصل المدرسة، سجلوا اسمه بين الغائبين.

لم يتمكن تيمار من الانتباه إلى النص الذي ترجموه إلا قليلاً، خطرت في باله أكثر الاحتمالات بعداً عن الواقع في تفسيره لغياب الفتى عن الحصة.

في العاشرة جاءت السيدة بُغُزي شخصياً لتبرر غياب پِشتا. أصاب الطفل مرض مستتر؛ كان طريح الفراش محموماً ويتمتم باسم تيمار على الدوام؛ قلق جداً بشأن الوعد الذي قطعه لأستاذه...

صاح تيمار من الفزع.

- سأركض إليه

- لا تفعل ذلك يا أستاذ، فقد عزلته عن العائلة.

- ما به...؟

- يشك الطبيب في الحمى القرمزية...

- أنا لا أخاف منها وليس عندي من أخاف عليه.

- وتلاميذ الأستاذ؟

في تلك اللحظة كانوا يندفعون إلى القاعة.

وزن تيمار الفكرة، لا يستطيع حتى عيادة ابنه المريض، المعلم، القس، والواجب هو الأول، وتأتي المحبة بالمرتبة الثانية، يجب ألاّ ينقل المرض المعدي إلى التلاميذ، لن يتمكن من رؤية ابنه الروحي لأسابيع.

هل سيراه بعد الآن؟ فالحمى القرمزية خطيرة إن أصابت الأولاد بهذا العمر...

جاءت أيام حبلى بالقلق، ذهب تماش إلى بيت بُغُزي يومياً ليحمل رسالة عن حال الفتى إلى تيمار، كانت حالة بِشتا بالفعل خطيرة، واهتمت كل المدينة بأخباره؛ فالجميع يحبونه. حتى مارك سادي استفسر عن صحته من تيمار، وعبّر عن أسفه، في تلك الأيام تصالح تيمار مع كل العالم، إلا مع القدر الذي تهدد حياة بِشتا، كم بدت له أسباب قلقه في السابق ضئيلةً غير ذات بال! رأى تصرفه طفولياً عندما كان يحزن أو يغضب لتقلب مزاج بِشتا، كل شيء آخر فقد أهميته، سوى أن يعيش بِشتا وتعود إليه صحته.

كم كانت قاحلة تلك الأيام التي أعطتها قراءة المحرار شخصية أو مزاجاً ما، لم يعرف تيمار كيف يقضي الوقت، طحنه ضجر شديد أينما ذهب، وكلفه العدول عن الذهاب إلى بيت بُغُزي بدلاً من مشواره إلى الكروم الكثير من الجهد، كان يود المرور بقربه على الأقل! في بعض الأحيان نظر بغضب إلى تلاميذه، فهم السبب وراء عجزه عن عبور عتبة البيت.

بيد أن الغضب انقشع شيئاً فشيئاً مع تحسن صحة الفتى؛ كل شيء راق، مثل هواء المساء بعد زخات المطر الحزين، سيرى بِشتا من جديد قريباً! ولعل هذا البعاد كان مفيداً بالنسبة له؛ شعر بأن شعلة المحبة قد هدأت في داخله وتسامى عنده الشعور الغاضب والأناني، توصل إلى اكتشاف كبير خلال الأسابيع هذه:

اكتشف أنه يحب الفتى أكثر من محبته لنفسه؛ وأنه قادر على التنازل عن رؤيته إلى الأبد إذا ما كان الثمن حياة بِشتا وسعادته، هذا الاكتشاف جلب له السكينة، فكر بشعور يشبه الخجل في تململه القديم وغيرته عندما خيل له في كل كلمة أو حركة برود في العلاقة بينهما، وارتجف على الدوام خوفاً من ابتعاد بِشتا عنه بسبب من تأثيرِ معادٍ أو حبِ جارفٍ يقع

فيه، وبينما فكر في الفتى وهو في البعد، كان أكثر تيقناً من محبته له مما في الوقت الذي رآه جنبه، فغدا يسخر من قلقه، ليحفظه له الرب، أما هو فسيرافقه في دربه بصداقة هادئة، ستبتسم شيخوخته لسنوات تفتحه مثلما تبتسم شمس المغيب للشجرة اليافعة.

وحتى بِشتا نفسه كان ينتظر رؤية فيرجيله الكهل بفارغ الصبر، أعاد المرض الطويل والممل إيقاظ كل الوشائج، وأشعل فيه نفاذ الصبر المرافق لنقاهته شعلة رغبته في التعلم والتفكير والسجال الفتي، لكل شيء عناه الصديق العالم بالنسبة لحياته الطالبية الحالمة، كان اللقاء بينهما مثلما كان متوقعاً:

لقاء الطفل والأستاذ، المحبة الساذجة، مثل مرآتين تحررتا وعكستا نور الأخرى بلمعان خفيف.

سار شفاء بِشتا ببطء، فغدا تيمار ضيفاً كثير التردد على بيت بُغُزي، فذاب الجليد عن روحه التي تعاني الوحدة، تمتعت عيناه العجوزتين بالشباب الغالي، ونظر بسرور أبوي كيف نما كذلك حب أيمّا الصغيرة غير الواعي؛ وبدأ بحبك الخطط عن مستقبل ابنه، فتى رائع بدأ المراهقة لتوه، طيعاً مرناً ونبيلاً، كأنه ملاك من ملائكة بوتيتشَلّي، أهداه له الرب في أيامه القاحلة...

شاع في المدينة أن فيرجيل تيمار هو الأب الحقيقي لبِشتا.

أحسّ بالاشتباه، وسرّ لذلك، حتى راقت لنفسه هذه الفكرة. كل الحقوق المتعلقة بالطفل أوكلها إلى نفسه، أكثر مما يتوكل الأب الحقيقي في أمر ابنه.

كم غرباء هم الآباء عن أبنائهم في الكثير من الأحيان! وكم هم لا مبالين! تعجب تيمار كثيراً كيف طاوع قلب بُغُزي السماح لإبنه الكبير بترك البيت، كيف سمح له ذلك بهذا الاطمئنان؟ ليذهب إلى الجامعة...

بالفعل، مر الوقت، واقترب بِشتا من سن الجامعة؛ نظر تيمار إلى أولاده الكبار في الصف، يشيخ المرء بسرعة! كانوا أطفالاً بالأمس، وزن الجميع كل أعضاء الهيئة التدريسية في نهاية كل عام فوق ميزان موضوع عند باب قاعة الأكل في الدير المفضية إلى الحديقة؛ وفي بداية العام الدراسي، بعد Veni Sancte[٢٧] سطرت أمام اسم تيمار في جداول الميزان أرقام متقاربة القيمة، هذا كل ما تركته السنون من أثر، السنون التي كان بِشتا ثمرتها الوحيدة، وكل ما فيها من إثارة، غير أن بِشتا أصبح رجلاً، بعد قليل سيأخذه القدر، لكن إلى أين؟ لا يهم، ليأخذه! فالقدر لن يمنعه من ألا يكون ابنه بعد الآن، بالنسبة إليه لا يزال طفلاً في عينيه حتى اللحظة، رعاه، مثل الآباء، حماه من النسمات ومن الرياضة العنيفة ومن وقاحات الشباب؛ وفكر وقلبه يخفق، بأنه سيصبح ملكه تماماً في الصيف؛ سيحمل همّه لوحده؛ لأن قرار السفر إلى إيطاليا قد تمّ، بِشتا هو الذي فتح الموضوع في لقائهما الأول على الفور، كتعبير عن فوران حماسه من جديد.

-مع ذلك سيكون التمشي عند الفوروم رومانوم أمراً رائعاً! متى نسافر؟

طرب قلب تيمار لسماع ضمير الجماعة.

كم رغب في هذه السفرة وكم تمتع بها مقدماً! شهران لا يفارقه بِشتا خلالهما أبداً، من الصباح حتى المساء! عاش وحيداً منذ تخرجه من السمينياريوم، في غرفة لوحده، لم يلتق بزملاء لا يعنون له الشيء الكثير سوى عند تناول الطعام، أما الآن فقد أطل عليه هذان الشهران يغمزان له من المستقبل بوعود جذابة وبمفاجأة كبيرة، شهران سيرى خلالهما كل

٢٧) نشيد "تعال يا روح القدس" Veni Sancte Spiritus ينشد في الاحتفال ببداية العام الدراسي.

تفاصيل حياة هذا الفتى المتفتح، سيتعرف على أصغر دقائق أفكاره، سيكون شاهداً على أروع الظواهر وأكثرها دهشة، كيف تنطبع للمرة الأولى صورة العالم الواسع الجديد في عيني فتى شاب وتنعكس في روحه الطرية صورة هذا المكان الرائع الذي خلقه الرب وصنعه الإنسان، إيطاليا؛ كيف ستتفتح العين وتغنى الروح الخطوة بعد الخطوة... تأمل دوره في روعة الإرشاد والتوجيه، أكثر ما يسعد له المربون، وبدأ بإعداد خطط السفر وتقليب كتب الرحلات.

شعر بأن مرحلةً كاملةً من حياته ستنتهي مع هذه الرحلة... أمضى عشرين عاماً في التعليم، بقليل من البريق، مثل الأيام الدافئة الكئيبة ستمضي هذه الأولمبيات الخمس من حياته، مثلما مضت سنوات أثينا وأعوام روما... كان يعلم باستعداد المدرسة للاحتفاء بهذه المناسبة دون أن يهتم كبرياؤه للأمر: احتفوا بلَشينسكي في السابق، وبسيريل غومبوش، إلا أن تيمار شعر بأن احتفاء المدرسة به سيكون احتفاء المدينة كلها، كان تيمار محترماً لأنه عاش على مبعدة من العالم بكثير من الحكمة، إذ لم يتدخل في صغائر وسفاسف الحياة، اعتبرته المدينة عالِمها الذي تباهي به سكانها في دواخلهم، هو القس الصالح الذي لم يبدر منه أي سوء على الإطلاق؛ والإشاعة التي طافت بالعلاقة مع أبوّة پِشتا لم تضره، بل بالعكس، ربما نفعته في أعين الناس.

- القس مثل باقي البشر

قالوها، حتى مارك سادي كفّ عن الغمز وتوجيه المسامير، أما پِشتا فقد أخذته الحمية:

إنه الاحتفاء بفيرجيله العجوز، كان خطيب الطلبة للحفل، وهو من أعطى بوساطة بُغُزي الفكرة لاحتفال المدينة بالمعلم الذي يتمتع بالتبجيل.

استبدلوا المصطبة الخشبية العتيقة الصغيرة الموجودة عند بوابة

دَمير فوق الجبل الكبير حيث اعتادا الجلوس بمقعدٍ حجري منحوت على النمط الإغريقي، ناقش الحجر الأسطة بياتْشَك (الذي درس ابنه في مدرسة السيسترسيين هو كذلك) كان من حفر بأكثر الحروف إتقاناً النص التذكاري الذي أعده بِشتا أيضاً، أبيات شعرية لفيرجيليوس شاعر الأستاذ المفضل:

محل استراحة فيرجيل

silvis scaena coruscis desuper, horrentique atrum emus imminet umbra; intus aquae dulces, vivoque sedilia saxo...[٢٨]

لم يكن فيرجيل سعيداً في حياته مثلما كان في تلك اللحظة، شعر الآن من جديد بأنه لم يعش عبثاً، وبأنه سوف يعيش! عاد له شبابه في خضمّ تخطيط وتلوين المستقبل الجميل ذي اللذة الكبرى الوحيدة والفائدة والهدف الوحيدين، أن يتلاشى كل سوء فهم، فيصبح بِشتا ابنه أخيراً وبالتمام.

لكن شيئاً ما طرأ في ذلك الوقت.

٢٨) في خلفية [المسرح] غابات تتماوج بفعل الريح، إلى الأعلى بستان أسود يتهدد بظلٍّ مريع؛ وإلى الداخل مياه عذبة وأماكن جلوس نحتتها الطبيعة... (مقطع مختصر من الإنيادة، الكتاب الأول، الأسطر ١٦٤-١٦٨).

الجزء الثالث

استيقظ الصحفي المحرر في "الصحيفة المجرية" و"العالم الجديد" فيلموش فيتاني من حلمه ذات يوم عند حلول الظهر متخدراً ودائخاً بعض الشيء، يبلغ التعب عنده الذروة في الصباح دائماً مثل غالبية الناس عصبيي المزاج عموماً، يبلغ نشاطه أقصى الحدود بحلول المساء؛ أما في الصباح، عندما يفتح عينيه ليقيس شدة الضوء المتسلل إلى غرفته ويصغي للمرة الأولى إلى هدير العربات في الشارع، يغلبه بقوة مريعة الشعور بعبثية الحياة وانتفاء الغاية منها.

أبدأ الآن يوماً جديداً؟ لماذا؟ سيكون مثل باقي الأيام. سيمر وحوله نفس الناس (الذين قرأ دواخلهم منذ وقت بعيد)، بنفس التصرفات، بنفس اللهاث وراء المال وبنفس العبودية المخزية... شيء واحد أكيد أمامه، لن يكون لديه الوقت ولا المزاج للبدء بما يتوجب عليه فعله، بما يعطي للحياة معناها، آه لو يستطيع العيش بتواضع من عمل مريح وبدخل مريح، والتنازل عن الحياة الصاخبة والحاجة القصوى إلى الكماليات والبهرجة، والعشاءات المحرجة مع المشاهير في البريستول، التنازل عن المرأة التي تمتص الرجل ووقته وأمواله وقوته وتتركه فاقداً للإرادة عاجزاً عن العمل والحماس من أجل أي شيء آخر، سواها...

فكر فيتاني في زوجته، الممثلة رائعة الجمال التي أقدم على طلاقها... ثم فكر في صانعة حلويات سويسرية شابة دوّخها بهداياه في البداية، وكاد أن يتمتع بلذة أخذ عفتها.

لأنه كلما تقدم به العمر اقتنع أكثر بأن لا شيء أجمل في العالم من السذاجة والبراءة، لكن فقط بالنسبة لمن يكسرها كالجوزة، لمن تتفتح أمامه، وهو أمر حرّك الدماء في عروق رجلٍ مثله؛ جعله ينسى الجرح الكبير الذي مس كبرياءه برحيل زوجته عنه قبل نصف عام. (لأن زوجته سافرت وتركته من أجل ضابط في الجيش، تاركةً رسالةً تقول فيها بصراحة حسب اتفاقهما أنها ما عادت تحبه)، عندها رتّب أمره مع صحيفته لترسله في بعثة إلى سويسرا حتى يرتاح قليلاً، فقد كان في حاجة للابتعاد قليلاً ولم يعد إلى بودابست إلا قبل يومين).

اندفعت أشعة الشمس قويةً من بين ألواح الشباك، نظر فيتاني إلى ساعته، قاربت الظهر. يجب أن ينهض... أن يدق الجرس للخادمة... إلا أن هذا الأمر كلفه صراعاً جديداً وجهداً شديداً كل يوم... من الأفضل إعلان المرض، بهذا يستطيع الاستلقاء في الفراش طوال اليوم، دون عمل... ثم استجمع قواه، كانت الشراشف مبتلةً بالعرق، مجعدة، خيّل له أن في فمه طعم خمر ميدوك الناشف الذي شربه ليلة أمس...

- افتحي ألواح الشبابيك.

قالها للخادمة.

انسكب الضوء، في تلك اللحظة مرت في الشارع شاحنة أثاث ببطء ناثرةً ضوضاءها القذرة، تبعها منبه سيارة.

- كانت شقة بودا أفضل من هذه رغم كل شيء.

فكر فيتاني المتشائم الأزلي بأن الشقة التي هو فيها هي الأسوأ دوماً، ترك شقته في بودا لأن كسله ومحبة الراحة وسهولة التنقل كانت أعظم عنده من ذوقه وعجرفته التي جذبته إلى القديم وطراز بيدرماير.

ازدحمت منضدة الزينة في الحمام بقناني العطور واللوازم ومراهم البشرة وأدوات الحلاقة ومصففات الشعر، كلها من أغلى البضائع وأحدثها،

مضمض فمه بماء غرغرة معطر وجهز له حماماً دافئاً وأخذ يقرأ صحفه وهو متمدد في البانيو، لم يعنيه في الصحف شيء سوى الثرثرات؛ تطلع بلا مزاج إلى قصيدة جديدة لشاعر مرموق في واحدة من المجلات، وخطر في باله لولا كسب المال والعمل الصحفي لكان اليوم في منزلة هذا الشاعر الذي وصل إلى ما وصل إليه بالقليل من الذكاء لكن بالمزيد من القوة الطرية، شاعر طليعي للأدب المجري المعاصر المتأثر بالأدب الغربي...

رمى المجلات التي تجمعت خلال غيابه الطويل المبقعة بقطرات الماء والمقصوصة بشكل سيء على الأرض متعباً الواحدة بعد الأخرى، كان رفيع المستوى الذهني بالنسبة للمجلات الهابطة المستوى، أما المجلات الجادة فقد تطلبت منه جهداً كبيراً وأضجرته... لبس بيجامته وروبه الصباحي، انتظره في غرفة الطعام الشاي والزبدة والعسل والمربى، هذا ما رغب فيه، لأن هذه هي العادة في الفنادق خارج البلاد، ذكرته غرفة الطعام بزوجته؛ كما لو بقي هنا شيء من روحية تلك المرأة، بلور فيتاني في داخله بعض الحكم الخبيثة عن النساء وبدأ بفض رسائله.

تكاثرت الرسائل جداً، لأنه لم يطلب من مكتب البريد إرسالها وراءه (كل مَن كان ينتظر منه رسالة يعرف عنوانه السويسري على أية حال). كانت الكثير من الرسائل المتأخر فتحها تحمل خطوطاً نسوية، كثير من الرسائل التي ترجو الحصول على توقيع، دعوات، رسائل شعراء ومعجبات كانت في كثير من الأحوال دعوات للحب بشكل أو آخر، سببت هذه الرسائل لفيتاني ارتياحاً مميزاً؛ فكر في قصر قامته، وساقيه المقوستين ووجهه ذي الملامح الشرقية القوية (الذي تأمله قبل قليل في المرآة). بالرغم من كل ذلك فهو اليوم يتمتع بالملذات ويتفنن في أمور الحياة، مثل أي زير نساء، arbiter elégantiarum [٢٩]

٢٩) خبير في الأناقة.

لو رأى أبوه المسكين- الذي كان يهودياً يلبس القفطان- كل هذا عند نور شمعة ليلة السبت!

ثم صادفت يده مظروفاً سميكاً كتب فيه أحدهم- أحد الشباب- ملاحظات على واحدة من مقالاته. ابتسم فيتاني بمرارة؛ حتى أنه لم يعد يتذكر رأيه الذي شرحه في المقالة المذكورة، ورغم ذلك قرأ الرسالة بكل اهتمام، مثلما اعتاد قراءة كل سطر متعلق به، هذه المرة وجد أن الحق مع هذا الرجل الشاب.

- لكن نخلص من كل هذا أن الحقيقة ليست ذات أهمية- قالها في نفسه- فالتصريح الذكي وإن كان متناقضاً أكبر قيمة من الحكمة التافهة.

قرأ الجمل المقتطعة من مقالته وتعجب هو أيضاً، هل كان هذا رأيه هو؟ لكن ما هو الرأي؟ إنه تقييد للذات، من بين الصحيفتين اللتين يعمل لحسابهما فيتاني كانت "الصحيفة المجرية" محافظة، أما "العالم الجديد" فهي راديكالية، تعوّد فيتاني أن يكون له رأيان في كل شيء، وشيئاً فشيئاً ما عاد يعلم أيهما الصحيح.

عثر كذلك على كتاب في بريده، رواية بتوقيع من مؤلفها، فكر فيتاني في كتابه، كتابه الحقيقي الذي يود كتابته لكنه لن يكتبه أبداً، كتبه عبارة عن مقالات صحفية، كتاباته وآرائه المجموعة في مجلد، ومع أنه كان يعتز بها كثيراً فقد كان مقتنعاً بأنها فانية، كانت بنات الزمن والزمن يأكل بناته.

بعدها جاءت رسائل من جديد، فيها مقتطفات من الصحف: ينبهه أصدقاؤه أو قراؤه المجهولون إلى مقالات وكتابات تتحدث عنه أو تهاجمه، هذه الرسائل دغدغت غروره؛ فهو يسر حتى للهجمات، لا بأس، ليذكروه فتزداد شهرته، قرأ واحدة من الكتابات برضى عميق، هاجمته صحيفة من صحف الطائفة اليهودية بسبب استعماله تعبيراً جارحاً عن اليهود في

واحدة من كتاباته، يسر فيتاني على الدوام عندما يعتبروه معادياً للسامية، فهو يدخل في الأوساط المسيحية بكل سرور ويذم اليهود، وبدأ ينجذب إلى الرؤية الكاثوليكية للعالم في أعماله الأخيرة، حتى أنه أعلن اعتناق الكاثوليكية.

وقعت في يده رسالة سميكة ثانية؛ أرسل إليه شاعر شاب ديواناً مخطوطاً، ألقى نظرةً سريعةً على الأبيات، كان يمتدح الشباب دائماً، لكنه لم يساعد أحداً منهم في تحقيق الذات، فذوقه، مثل رأيه، قد تبخر وزال في حقيقة الأمر؛ فلم ينتزعه من لا مبالاته شيء سوى الأروتيكا الخانقة أو البدعة المستغربة، وقيّم الشعراء الأجانب أيضاً على أساس عجرفته ومعايير الموضة لا غير، ليس لأنه يفتقر إلى الحس الأدبي العميق الذي ولد معه؛ إلا أن فقدانه الاهتمام وتعبه منعاه من الغوص في أعماق الأدب النفيس، ثم يحقق الشباب ذاتهم في المعترك على أية حال؛ فهو صراع مرير بين الأجيال؛ فهل يكون هو هذا المغفل الذي يساعد خصومه على النجاح؟ أن يمتدحهم، يتملق لهم.

نعم! لأنهم يشكلون خطراً، لكنه لن يفتح لهم الأبواب! ألا يكفي تمتعهم بالشباب ذاته؟ أليس الشباب كل شيء؟

كل شي، كل شيء! شعر فيتاني ذلك الآن بكل جوارحه للمرة الأولى، كان شاباً لحد اللحظة (رغم تخطيه سن الخمسين)، ألم ينتم إلى أكثر الجماعات الأدبية شباباً على الدوام؟ ألم يكن ثورياً؟ ألم يلبس كشاب متأنق في العشرين؟ لكن منذ تركته زوجته شعر بأن كل شيء كان عبثاً، لا شيء يعوض الشباب الحقيقي، الجسدي- في الجسد الإلهام، القوة... ومنذ اختفاء شباب زوجته الغض من أمام عينيه انتبه إلى اهتمامه الفائق بالشباب- من كلا الجنسين، راقب حركات الشباب وكلامهم وسذاجتهم؛ وتمتع بذلك، وثمة أسباب جنسية لذلك أيضاً بالتأكيد، لكل المشاعر والانجذاب أسبابه

الجنسية، إنه بداية الشيخوخة، نعم، الرغبة في تدنيس العفة، ربما بدايات الانجذاب المثلي... أو لعله مجرد شعور الرجال الذين ليست لهم عائلة، شعور أبوي مجهض على الدوام، لكن المشاعر العائلية، الأبوية أساسها جنسي كذلك، إنها عقدة أوديب، الأب والابن يحبان بعضهما البعض، وشريكان في الرغبة في نفس الوقت... لعل كل اهتمامه السري والآثم في الظاهر بالشباب هو شيء من قبيل الرغبة الفرويدية في الحصول على طفل.

ماذا لو كان لديه ابن؟

فكر في الأمر، لم يبنِ من الحياة العائلية والمحبة العائلية شيئاً مثالياً؛ فقد كان يعلم جيداً أن حياتهم ستنقضي مليئة بالغضب والتناكف والمشاحنات المستمرة؛ لكنها تنقضي مع المرأة كذلك على هذا المنوال، أليس كذلك؟ ومع ذلك تبقى المرأة أعظم شيء في العالم وأكثر ما يملأ الحياة بالمعنى، ربما ما تعنيه المرأة للشباب، يعنيه الطفل لكبار السن؛ ليس لأن كبار السن أفضل، بل لأنهم أكثر فساداً؛ فهم يحتاجون هذا الحافز، أليست التربية، والتعليم هي في جوهرها كأخذ العفة؟ من يزيل الجهل يزيل البراءة بشكل أو آخر؛ وفي هذا تكمن اللذة التي يشعر بها المربي.

لعل هذه اللذة التي يجب تذوقها؟ لا يوجد شيء آخر يستحق الحياة سوى هذه اللذة.

القشة الأخيرة...

عندها ذهب فيتاني إلى منضدة الكتابة، سحب درجها وقلب محتوياته على مخمل المكتب القديم بحداثة طراز بيدرماير، كان فيه رسائل وقصاصات من العام الماضي؛ كل شيء مما لم يرميه، حشره هنا؛ ترامت هنا قطعة من حياته، كأنها نفاية، أغلبها كتب عليها بقلم التأشير الأزرق،

كل الرسائل التي أجابها؛ ألا أنه كان يبحث عن واحدة بقيت دون تأشير أو جواب، عن ورقة رسالة "نسائية" تماماً وقديمة، مما اقتصر وجوده اليوم في الأرياف فحسب، رسالة مكتوبة بحروف نسوية طويلة رقيقة وذكية تفصح عن ضعف يد وفي نفس الوقت رجاحة عقل من كتبتها، أسرع بالقول، لينا فاغنر من كتبها (اشترى ابنها ورق الرسائل هديةً لها من النقود التي حصل عليها لقاء تدريس الأولاد، مثلما اشترى الكناري).

قالت الرسالة:

"صديقي العزيز"

آمل ألا تكون المخاطبة هذه قد أثارت فيك ذكريات سيئة: إذ كانت أوقات جميلة تلك، أليس كذلك أيها العزيز فيلي؟ عليك أن تعترف أنني كنت امرأةً طيبةً وذكية، ولم أزعجك بسطر واحد منذ ذلك الحين قبل ستة عشر سنة، حتى أنني استكثرت تواضعي. لا أنهض الآن من صمتي إلا لأنني مقبلة على الصمت الأكبر قريباً. وبدون تندر، أيها العزيز فيلي، فأنا في مرض شديد، وأحسب أنني لن أصمد كثيراً. أتدري أنني الآن أيضاً مثلما كنت في ذلك الوقت عندما كنا سويةً أعتقد بأن كلاب الموت تسعل في داخلي. لن أكون في حاجة إلى شيء؛ لكن لي ابن، ولد في شهر تشرين الثاني من عام واحد وتسعين. أصبحت إنساناً شهيراً منذ ذلك الوقت أيها العزيز فيلي، وأسمع أنكم تعيشون في بحبوحة، - فلعلك تفكر في ابني الذي ولد في شهر تشرين الثاني من العام واحد وتسعين. لم أكن عبئاً عليك أبداً - وكان في الإمكان أن أكون كذلك ربما... صحيح أننا افترقنا على أساس أننا لسنا ندين لبعضنا البعض بشيء، ولن نزعج الآخر برسائل - ألا تعترف، لم تصدق بأنني سأفي بعهدي هذا. وفيت به حتى اليوم. لكنك عندما تجيبني على رسالتي هذه سأكون - لا، سأنتظر جوابك، لأنني أستطيع بعد ذلك الموت براحة. الولد من ذهب، جميل،

وأرسلته ليتعلم في الثانوية، ولد طيب المسكين - لم تتوقع أن أكون مربيةً جيدةً بهذا الشكل. اسمه فيلموش.

الله معك، عزيزي فيلي، لا تزعل عليّ، فكّر في الأيام الجميلة الماضية. لو ترى ما حل بي سترثي لحالي.

محبتي

"ليناك"

قرأ فيتاني الرسالة من جديد وأمعن في التفكير، من المحتمل ألا يكون مجرد ابتزاز، فالوقت صحيح تقريباً... لا بد من معرفة ما حل بلينا المسكينة، لم يكن على حق لأنه لم يسأل عنها لحد الآن، تذكر لينا: كانت بنتاً طيبةً وذكية... لم يجبها على رسالتها ليس بسبب قلة الاكتراث، بل- الله لوحده يعلم- بسبب الكسل، أو الخدر، وقتها لم يقو على التفكير سوى بزوجته... ليس لأنه حسم أمره ألاّ يجيبها، بل لأنه لم يستطع حسم أمره في الجواب...

لكن الآن...

يا له من شعور غريب، جديد حقاً، أن يكون له ابن...

أدرك منتصف النهار فيتاني وهو في عربة الدرجة الأولى للقطار السريع بعد بضعة أيام، لبس قبعة سفره الأنيقة وألقى بنظرة على متاعه وحقيبته الجلدية التي احتوت على عدة الحلاقة الخاصة بالسفر وأدوات التجميل، وذهب إلى عربة المطعم، طلب أفخر أنواع الخمر مع الغداء ثم أخذ يرنو إلى الريف والقرى التي تمرق أمام النافذة، كم غريب هذا العالم! تغفو هنا الحياة كما لو أنها في رحمٍ هائل الحجم، تصنع وتعطي من لدنها المادة البشرية بصمت، ولربما يكون الوصول إلى العاصمة هو الميلاد الحقيقي...

لم يكد ينتهي من شرب قهوته حتى اضطر للنزول والصعود إلى القطار

المحلي المتجه إلى شوت، مالت الشمس للغروب، تسمع خطوات ثقيلةً تطرق على سطح القطار المحلي، انفتح غطاء المصباح الزيتي فتصاعد لهب قذر يتراعش في زجاجة المصباح، كأن ستائر من الضباب غطت الريف، اضطر فيتاني وضع الصحيفة جانباً، فقد تعذرت القراءة تحت ضوء المصباح الزيتي، امتدت في الخارج تلال واطئة تلاها سهل من جديد، كانوا يحرقون القصب في مكان ما، كان الأفق في الدخان الأحمر الفاقع أشبه بحريق على شاشة السينما، كان فيتاني في مزاج متسامٍ حقيقة، شعر أن هذه الرحلة لها علاقة بحياته، كيف تمضي إلى أمام وكيف تسير نحو المجهول؟ شعور لا يعرف حتى الشيطان متى أحس به آخر مرة؟ نفض الرماد عن سيجاره الراقي في المنفضة المثبتة إلى شباك العربة، في رحلاته الأخرى انتظرته الفنادق الراقية المعروفة، طاف في كل أوروبا: عبثاً ذهب إلى أي مكان، لم يحدث أي شيء ذو بال، لم ترتقِ حياته إلى الأمام على الإطلاق... زاوية صغيرة من العالم أعطته انطباعات جديدةً فحسب: وطنه.

علم بوفاة لينا (طلب من السلطات المحلية في شوت إبلاغه)؛ علم كذلك بعد شيء من الاستفسار- لأن كل شخص في شوت يعرف الجميع- أن الفتى في عهدة معلم من السيسترسيين، يشاع عنه أنه أبوه، سمع كذلك أنه نِعم الفتى، مفخرة المدرسة؛ كذلك علم أنهم يسموه پِشتا، مما دعاه إلى أن يضحك في سرّه هازئاً بطيبة.

- كتبت أن اسمه فيلموش. باقي أجزاء رسالتها صحيح إذن بنفس القدر، بالتأكيد. من يصدق، لماذا لم تتصل كل هذه الفترة إذن؟ لا بأس! لا أتنافس مع نفسي على جائزة الأبوة، من يدري؟ لعل الأمر يزعج أيضاً... ليكن هو المسخ لا ابني؛ أما أنا فلأكن مفيستو، ربّاه معلم من السيسترسيين؟ هذا أفضل، فتى ريفي بريء طيب، في العمر الذي يبدأ معه التمرد في الحياة، سآخذه معي حيثما أذهب، وأعرّفه على كل شيء، سيكون تجربةً سيكولوجيةً حقيقية،

عندئذ سأكتب كل ذلك.

قبل الظهر (بعد ليلة مؤرقة قضاها في الفندق السيء) زار الفتى في المدرسة الثانوية، أرسل في طلب الولد في غمرة ضوضاء الممر.

- أنا سعيد برؤياك يا بني

قالها وقد تمتع بكلمة "بني" بشكل خاص.

- كنت صديقاً حميماً لأمك...

ثم استفسر عن لينا وعن أحوال الفتى، لم يعرف بِشتا من هو محدثه، فأجاب بتحفظ.

أخيراً سأله فيتاني:

متى يستطيع التحدث إلى تيمار؟

كان تيمار منشغلاً بحصصه، فقرر فيتاني زيارته بعد الظهر، أسرع إلى الدير فور إتمامه الغداء، كان تأثير جدران الدير القديمة بسكونه مختلفاً تماماً عما كان في صخب المدرسة عند الصباح، سار بتعاليه المعهود في الممرات التي تشع بالتقوى، لكن باهتمام خاص هذه المرة، فكل ما هو قديم وكاثوليكي يفرض نفسه على فيتاني إلى أبعد الحدود، ارتوى احساسه الفني تماماً بهذا الجو البسيط والمتدين، وشعر بشيء من الفخر لمنجزات الديمقراطية المعاصرة، إذ رغم تحدره من بقايا اليهود لابسي القفاطين، فهو لا يسير في هذه الممرات كمنبوذ عليه لطخة صفراء، بل كسيد محترم، كضيف مهم لربما يستطيع تقدير جمال وأجواء هذه الجدران أكثر من القساوسة الصالحين الذين يسكنون بينها.

فكر في رينان وأناتول فرانس وقرر قراءة أعمال آباء الكنيسة الأوائل وأعمال القديس إغناطيوس لويولا[٣٠] -خطر هذا الاسم في باله بلا تعيين،

---

٣٠) مؤسس رهبنية اليسوعيين في ١٥٤٠

مرت رؤياه للعالم في تغير كبير وهو يمضي من البوابة حتى باب صومعة فيرجيل تيمار، اقتنع تماماً، لا يمكن عيش حياة فنية حقيقية إلا وفق المبادئ الكاثوليكية بصرامة، قرر كذلك اقتناء تمثال كبير صارم من الحديد يمثل المسيح على الصليب، مثل هذا الذي رآه هنا في ممر السيسترسيين.

كان فيرجيل تيمار في غرفته منهمكاً بالمطالعة آنئذ، تسبب الاحتفال بـ "يوبيله" في تغيرات كبيرة داخله، شعر بالخجل من تعابير المحبة التي أحاطت به من كل الجهات، لكنه ارتاح لذلك في نفس الوقت؛ فقد غمرت كيانه بالسكينة تجاه ذاته؛ وبدرجة أهم، اطمأن أخيراً من محبة "ولده" له، أعطاه ذلك القوة للنظر إلى نفسه وتصفية الحساب مع ذاته للمرة الأولى منذ زمن طويل؛ رأى حياته، وتجرأ على معرفة قيمته وقدره، إلى هذا الحد وليس أكثر، تفحص الوقائع بكل هدوء، شعر أنه تجاوز عنق الزجاجة وكل الصعاب في حياته، ومن الآن فصاعداً يقوده طريقه في المنحدر نحو الأسفل؛ لكنه سيصبح طريقاً سهلاً وهادئاً، أو ظن هكذا، مثلما تتهادى العربة في المنحدر وقت الغروب، سيكبر بِشتا ويهدأ شيئاً فشيئاً، وسوف يتلاشى منه العناد الطفولي، وتململه اللاواعي المرتبط بفترة نموه هذه، وثوراته القاسية التي لا تأخذ شيئاً في الحسبان، كلها ستخمد وتزول وستسيطر عليه جدية العمل والحياة، لن يجلب له العذابات بعد الآن، بل السعادة الدائمة والمؤكدة، وفي هذا الجو من المحبة سيجمع من القوة ما يكفي لقضاء الشيخوخة، وربما للعمل كذلك؛ إذ عادت مطالعاته تثير اهتمامه الآن من جديد وقد هدأ روعه؛ أخرج كتبه القديمة العزيزة عليه؛ حتى بدا كأن الفكرة الجريئة لتحقيق خطة شبابه في ترجمة كتاب اعترافات القديس أغسطين.

والآن أيضاً.كان يقلب صفحات الاعترافات، وسرحت أفكاره لتحوم حول بِشتا. وبينما كان يقرأ عن شباب أغسطين وعن تعطشه للدراسة، عن

شكوكه التي طحنته، تأملاته الفلسفية، هذا التهتك الذي يمارسه العقل، عن ضلالاته الهرطقية، وعن بحثه المحموم عن الحقيقة وظمأه إليها ظمأ لا يرتوي، أخذت شخصية پشتا تتراءى لناظريه بحدة متزايدة، خطر في باله، أنه شبّهه يوماً بترتوليان..

-لا، لا يشبه ترتوليان، بل أغسطين- قالها في نفسه. -نعم، من الممكن أن أغسطين كان على هذا النحو، هذا الفتى الأفريقي المتقد المتحمس الثاقب النظرة، لديه نفس الحماسة، ولعله يتعين على پشتا المرور في أفكاره عبر كل المخاطر، معرفة كل الشرور قبل أن يقع اختياره على الخير، تماماً مثل أغسطين... ولعل الأمر لا يصح إلا على هذا النحو. ومن يدري، قد يصبح پشتا أغسطين الجديد، عقلاً عصرياً عظيماً يعيد للكنيسة سيطرتها على الأنفس...

فرّ تيمار، كاد يفزع لرؤية السيد الصغير الرقيق الغريب الشرقي الشكل ذو الملامح الزنجية- اليهودية المتأنق بملابسه العصرية وهو يدخل، دخل معه إلى غرفته شيء كامل الغرابة: ماذا يريد منه هذا السيد؟ كان فيتاني متعطراً، تكلم بصوت واطئ وباحترام فيه مبالغة، جلب معه جو التعالي كله، أحس الراهب بغريزته صفة العدو في هذا الرجل، خطر في باله هذا التوجس الغريب، وكأنه شعر بمجيئه مقدماً قبل دقيقة من الآن، لأنه كان يفكر قبل لحظات بشكل جلي وواضح في حلول الهدوء على حياته الآن، يفكر في تمكنه أخيراً من الانغمار في الأحلام والخطط، والآن، في هذه اللحظة سيجيء شيء يعكر عليه كل ذلك، عندها سمع الطرق على الباب.

نظر إلى الزائر بتوجس واغتراب، تفحص فيتاني الغرفة بدون أي انزعاج في فضول مكشوف،

-أرجو المعذرة أيها القس المبجل، لأنني أزعجتك في سعادتك بصومعتك، أعرف جيداً أن سعادة الصومعة هي العزلة، وأن حضرتك

لا تجد سبباً للفرح بزيارتي هذه.

وهنا ألقى نظرةً خاطفةً إلى الكتاب المرمي على المكتب ونطق بالاسم اللاتيني من بين أسنانه بابتسامة متهكمة خفيفة وبافتخار خفي بتلذذ.

- عندما أقوم بإزعاجك أثناء قراءة أوغسطينوس.

غمر تيمار شعور بالانزعاج عندما سمع في التو اسم رجل الكنيسة المرموق ينطق بشيء من الاستعلاء، أسرع في دفع العلبة التي احتوت ما تبقى من سيجارات "يوبيليوم" أمام ضيفه (هو ذاته لا يدخن)، والاستفسار منه، ما الخدمة التي يستطيع أن يؤديها له؟

- في الحقيقة، حتى أقول ذلك- ابتسم فيتاني- يتعين عليّ كشف أشياء عن نفسي تصلح لأن تكون اعترافاً مقدساً كاملاً؛ لكن أحسب أذنيك قد اعتادتا على الاعترافات أيها القس المبجل.

سبّبت لتيمار مخاطبته بـ "القس المبجل" -التي كررها الصحفي برضاً واضح عن النفس- ضيقاً. (فقد اعتادوا مخاطبته بالأستاذ فحسب). تضايق أكثر من ذكر قداسة الاعتراف بهذا الأسلوب العبثي، واصل فيرجيل الانتظار بعصبية وتطيّر.

- Nihil errare non est humanum [٢١]

ابتدأ الكاتب الكلام من جديد.

- وحضرتك تعرف أفضل مني، أن أسقف هيبّو[٢٢] أمضى أيام شبابه في الضلال والملذات، وحتى المسيح غفر للمرأة الزانية؛ ومن يعلم

---

٢١) من لا يخطئ ليس بشراً [أو] العصمة ليست بشرية.

تحريف لقول القديس جيروم Errare humanum est أي الخطأ شيء بشري. وهي مقولة تذكرنا بقولنا العصمة لله، أو سبحان من لا يخطئ

٢٢) Hippo Regius هي اليوم عنابة الجزائرية، من مدن شمال أفريقيا القديمة، والمقصود به القديس أغسطين (٣٥٤-٤٣٠)

منّا علم اليقين إن كان هناك ثمة أدَيوداتوس[٣٣] يبكي في مكان ما؟

بدا الفخر واضحاً على فيتاني لسعة علمه في موضوع آباء الكنيسة، الذي اقتصر وبشكل غريب على مقتطفات مثيرة من حياة أغسطين فحسب، لكنه كان مقتنعاً وبصدق بأن ذلك هو الشيء المثير الوحيد في كل سيرة أغسطين، هو مفتاح الأسرار الحقيقي لكل سيرته؛ وهذه القناعة منحته تفوقاً كبيراً، إلا أن تيمار شعر بشعور جد غريب عندما لمّح الزائر إلى الابن غير الشرعي لأغسطين، وتعامل بهذه النغمة المستسهلة مع الإشكالية الأخلاقية الثقيلة لموضوع الأبوة غير الشرعية؛ أثار اشمئزازه بشكل خاص استعماله لصيغة الجمع التي جعل بها الغريب من تيمار شريكاً له في ذلك، وعجزه عن صدّ ذلك بأي شكل من الأشكال، علاوة عن ذلك، أدّى ذكر أدَيوداتوس إلى أن يخطر بِشتا في بال تيمار؛ وتملكه شعور غير محدد بأن ما يريد قوله يتعلق بِشتا بشكلٍ أو بآخر، وهذا أربكه بشكل كامل وملأه بظنون مشؤومة، أكمل فيتاني كلامه:

- أدَيوداتوسي أنا، إذا لم تخدعني الإشارات، فهو طالب صغير مسكين، يتمتع بحماية حضرة أبونا القس. بالطبع، قد تخدعنا الإشارات، لأن pater semper incertus[٣٤]؛ كتبت لي امرأة في هذا الشأن، خطيئةً من خطايا زمن الشباب، تلك التي نتذكرها عن طيب خاطر نحن، أبناء هذا العالم، حتى وقت اشتعال الشيب في الرؤوس- وأضاف إلى ذلك مبتسماً:- ecce homo[٣٥]. كانت lasciva puella[٣٦] -واصل كلامه- وأصبحت مجدلية تائبة؛ على الأقل تقمصت هذا الدور في رسالتها، قبل وفاتها؛ كانت تميل

---

٣٣) هو ابن القديس أغسطين الذي ولد له من علاقة غير شرعية قبل اعتناقه المسيحية.

٣٤) شخص الأب غير مؤكد على الدوام

٣٥) ها هو الإنسان. [قول بيلاطس وهو يؤشر إلى يسوع المسيح]

٣٦) بنت مغناج

إلى التمثيل بشكل كبير. أليس صحيحاً mors veridica، لكن mulier mendax[٣٧]: الموت صادقٌ، لكن المرأة تكذب حتى وهي على فراش الموت؛ لو كان للمسكينة لينا وقتها صديق من الوزراء كذلك، ربما لم أصبح أنا اليوم أبو فيلموش الصغير- قالها بتفهم متسامح. -لكن ما العمل؟ قلبنا الشائخ يتحرق رغبةً في الحصول على ابن؛ وإذا لم يرزقنا القدر بجنين شرعي، quem nuptiae demonstrant[٣٨]، فسوف نكون مستعدين لأن نخدَع ونُخدع، بالمناسبة، أين هذا العش الشرعي الذي لديه المناعة ضد الدخيل من البيض؟ Amor vult decipi[٣٩]...

تحدّث بلباقة لا تنضب، وتأمل بشكل خاص أن يكون للأمثال اللاتينية المنمقة التي جمعهما من ذاكرته أثناء ليلة الفندق المؤرقة وقعها الخاص، دق قلب تيمار بعنف؛ شعر بدنو أعظم امتحان له في حياته: يريدون انتزاع ابنه الروحي منه، لم تخطر في باله فكرة أو مشاعر سوى ذلك؛ وتركزت أعصابه كلها في استنفار قلق، مثل الحيوان المتوحش عندما يتهدد وليده الخطر، توجه كل اهتمامه صوب نقطة واحدة، لأن الغريب لا يتحدث عن أبوّته بشكل لا لبس فيه؛ فشعر أن الدفاع عن قضيته يمر عبر هذه النقطة بالذات، وصمم على الدفاع حتى النهاية، أليس علاقة الطفل الأوثق هي به، هو من ربّاه وعرف كل أفكاره وخلجاته تماماً، أوثق من علاقته بهذا الغريب الممجوج؟ أغضبته هذه الـ nonchalance[٤٠] التي تحدث بها الصحفي، فقد استشعر بلا وعي أن الأمر لا يتعدى النزوة الطارئة عند الغريب، بينما يتهدد عنده كل سعادته المستقبلية.

---

٣٧) المرأة كاذبة

٣٨) من يشير إليه الزواج [أي أن الأم معروفة، أما الأب فهو من يذكر اسمه في وثيقة الزواج]

٣٩) الحب إن أراد أن يُخدع [أصل المثل اللاتيني: إن أراد العالم أن يُخدع، فاخدعوه]

٤٠) لا أبالية (باللغة الفرنسية)

- إذا لم أكن مخطئاً، الحديث يدور عن الفتى فاغنر، أليس كذلك؟

قالها أخيراً مستجمعاً كل هدوئه.

- وجدتها أيها القس المبجل.

بدأ المعلم كلامه:

- جرى ترتيب أمر تربية الفتى بشكل كامل، وضعته عند عائلة ميسورة ومحترمة، عائلة المحامي بُغُزي التي تحبه كثيراً وتهتم به كواحد من أبنائها، وأنا أشرف على تعليمه ويمكنني القول أن الفتى يتطور بشكل واعد بالتأكيد وتعقد عليه كبار الآمال.

انحنى الصحفي بشكل خفيف.

- أنا ممتن للعناية المسيحية الحقيقية به من حضرتك، وأنا سعيد في نفس الوقت لأنني سأرفع عن كاهلك هذا الحمل الثقيل، كان عليّ القيام بذلك قبل سنين، لكن مَن مِنّا ينجز ما عليه؟ Videmus meliorra...[٤١] النساء والأمراض والمشاغل منعتني من أن أكون أباً، الدير سعيد، procul negotiis[٤٢]. من حسن حظ الفتى بالتأكيد أن يكون بين هذه الأيادي الممتازة، ويترعرع في جو هذه المدرسة الشهيرة. لكن هناك أمامه schola vitae[٤٣]؛ وفي هذه وبدون تواضع يمكنني اعتبار نفسي معلماً أفضل من القساوسة المحترمين، شئنا أم أبينا، مهنتي تجعلني كذلك، فأنا أعيش في وسط لجة الحياة، أليس كذلك؟ آخذ بيد التلميذ in medias res[٤٤]. سيكون الأمر عذاباً لي، أما له فتجلّي...

---

٤١) نرى الأشياء الأفضل

٤٢) بعيداً عن الشؤون العامة [من بيت للشاعر هوراس: سعيد من يبتعد عن ضجيج الحياة]

٤٣) مدرسة الحياة

٤٤) إلى الوسط، [آخذه إلى اللّجة أو إلى وسط المعمعة]

استمع إليه فيرجيل شاعراً بضيق كبير؛ وأثّرت عليه رغم أنف طبيعته الخجولة والبسيطة شخصية هذا الرجل الدنيوي الذي بدا لعينيه صاحب تجربة ومتفوقاً، ساوره قلق لم يستطع تجنبه:

أليس هذا الكاتب المثقف، الرجل الراقي الأنيق مربياً جيداً أكثر خبرة منه في شؤون الدنيا هو الراهب قليل التجربة المنطوي على نفسه؟ هل يمتلك الحق في حرمان الإبن من أبيه لمجرد أنانية الإنسان الوحيد المغرقة في عاطفيتها- ومن كل العالم الذي ينتظره في بودابست، العالم الذي يعني بالنسبة لروحة الفتية المتعطشة الشيء الكثير؟ ثم ألا يتعين على "ابنه" هو أيضاً أن يجتاز بحر إغراءات الدنيا، مثلما فعل أغسطين؟ أهذا ما كتب عليه؟

لكن قلقه دام للحظات فحسب، هل هذا السيد هو أبو بِشتا الحقيقي؟ حتى هو لم يقلها بكل يقين، وإذا كان الأمر كذلك، هل يعطي ابنه إلى هذا الغريب مهما كان مثقفاً وراقياً؟

- هل رأيت الفتى؟

سأله.

- بالطبع الكثير يعتمد على... يمكن استنتاج الكثير من الاستنتاجات بناءً على الملامح...

- للأسف، لا شيء؛ الولد يشبه أمه تماماً: filius matrizat[٤٥]

- رأيته، وتحدثت إليه؛ يبدو فتى طيباً وذكياً، الحمد لله فهو لا يشبهني على الإطلاق...

- هذا يعني في البداية... في البداية يجب التأكد من...

ابتسم فيتاني.

---

٤٥) الولد يشبه أمه.

- ولماذا؟ أعترف لحضرتك، أنني لا أرغب في فقدان هذا السراب، الرجل الحكيم هو من لا يبحث عن اليقين، نحن نأخذ حصتنا اليومية منه على أية حال، ورسالة المسكينة لينا المؤثرة بدأت تسلط الضوء على الوقائع، كتبت المسكينة، أنها أسمت الفتى على اسمي: فيلموش؛ والآن أكتشف أن اسمه بِشتا. لو واصلنا تسليط الضوء على هذا المنوال...

شعر تيمار كأنه يسمع النطق بقرار الحكم، الآن فهم كل شيء؛ اكتشف الصلة في هذه القصة، شحب وجهه.

- لكن- تمتم بصعوبة- لكن اسمه في شهادة الميلاد فعلاً فيلموش...

ابتسم الكاتب من جديد، في تشكك.

- هذا لا يفرق... مهما يكون الاسم في شهادة الميلاد، فإنها كتبت لي بأن اسمه فيلموش...

جلس تيمار في مقعده محطماً، هبطت عليه مسألة الاسم كالحكم القاطع الذي لا يخضع للإستئناف، قلّب كل الاحتمالات، فلم يعِد يشك أن هذا السيد هو أبو بنه.

- فيلموش!

كررها، ونظر إلى الغريب بسهو وعجز.

- اسمه فيلموش... هو ذا الاسم...

- هذا هو اسمي، فيلموش فيتاني- أسرع الكاتب في التوضيح بحماس الغرور اللذيذ: ماذا سيكون وقع اسمه الشهير على آذان القساوسة؟ -بالتأكيد لم يسمع حضرة القس اسمي بشكل واضح عندما عرّفت نفسي...

كان تأثير الاسم فائقاً بالفعل، كأن رأسه التهب للمعرفة الجهنمية،

أصبح كل شيء يتعلق بشخصية بِشتا واضحاً الآن، سواء ما كان يبدو إلى الآن رائعاً أم مثيراً للقلق، انحلت التناقضات فجأةً في وحدة عجيبة، حدة ذكاء الطفل وانفتاحه على الأفكار والميل الثوري لكل تفكيره الذي يتميز عن كل محيطه، بعض حركاته وبعض نغمات كلامه التي تدلل على قرابة إلى الشرق البعيد، انحناءة شفته المنتفخة قليلاً ولمعان عينيه المميز، كل هذه الغرابة المثيرة التي آذته ومع ذلك جذبته إلى الفتى! كل هذه الصفات وجدت صلتها بصاحبها، لا يوجد أدنى شك: فيتاني هو أبوه، وتذكر تيمار كيف قرأ الولد كتاب فيتاني الشهير بمتعة، وكيف دافعَ عن سخرية الكاتب في مواجهة غيظه كقسيس، نعم، فيتاني هو أبوه، الذي يحتج كل تقواه وقناعاته الدينية وشعوره العرقي الذي لا يمكن إزالته وعلمه الجليل وانتمائه المجري النزيه بصوت عالٍ ضد نظرة هذا الرجل فيتاني إلى العالم وتصرفه وسطحيته وكل كينونته الجسدية والروحية، من صلب هذا الرجل جاء ابنه هو! وشعر برغم كل نفوره أنه يحب الفتى، يحبه كما هو بهذا الاختلاط العرقي وبكل هذه الصفات التي ورثها عن هذا الرجل التي طالما وبّخه عليها وشذبه منها، لكن التي من دونها- وقد تنبه إلى ذلك الآن فقط- لن يكون من بِشتا ذلك الفتى الوحيد الذي يحبه بهذا الشكل، لن يكون بخلافها سوى تلميذ ذكي وورع من تلاميذ السيسترسيين الذين أنجبت هذه المدرسة العريقة الكثيرين منهم...

راقب فيتاني بعيون نهمة التأثير الذي أوقعه ذكر اسمه على الراهب، لم يستطع إخفاء سروره الداخلي ورضاه المتهكم إلا بصعوبة عندما رأى ذهول وتعجب العالم الورع؛ وكيف لا يذهل المسكين عندما يقف وجهاً لوجه معه، مع فيتاني الشهير، الكاتب التقدمي الماسوني، الهدف الأزلي لهجمات الصحف الكنسية! وكيف لا يتعجب عندما يكون فيتاني الصحفي "اليهودي" أفضل معرفة بأسماء تاريخ الكنيسة وبالاقتباسات اللاتينية من القس الطيب نفسه لربما؛ فقد أثر هذا عليه بكل تأكيد، لكن نفور الراهب

هو ما تمتع به بالدرجة الأولى، ربما ستسلّم الكنيسة بقلبٍ مهموم مثل هذا الحمل المتبلد (كما تصور بِشتا) ليد شخص اشتهر بلا إيمانه مثل فيتاني.

حتى أنه أفصح عن هذا.

- حضرتك قد ترتعد لسماع اسمي بالتأكيد، وتفكر، يالها من أخلاق جميلة تلك التي سيتعلمها فتىً مسيحي مؤمن في بيت رجل ذاع صيته مثلي، لكن اسمح لي بالتفاخر، لست سيئاً مثلما يشاع عني؛ وعندي حتى عقيدة الفتى الدينية لا يتهددها شيء، أنا احترمت جمال العقيدة الأرثوذكسية على الدوام؛ واليوم لا توجد عقيدة أرثوذكسية سوى في الكاثوليكية، -مثلما قال تشسترتون- حضرتك تعرف تشسترتون، الكاثوليكي المجدد الكبير، اعتادوا اتهامنا، نحن الصحفيين بـ"تقويض الهيبة"، إلا أنني بدأت أشيخ، وإذا كان ذوقي الأسثيطيقي لا يرى الجمال في الأرثوذكسية، فإن مصلحتي تقتضي مني ألاّ أقوض في ابني احترامه للهيبة، لأن auctoritas apex senetutis[٤٦]، أليس كذلك؟ لكن صدقني حضرة القس، لا يوجد إنسان لديه ذلك القدر من الموهبة لفهم لغز الدين والتمتع به مثل الفنانين والكتاب، فالفن بحد ذاته دين قد انحسر وأزيح... والدين غريزة جنسية انحسرت وأزيحت... لكني أرى القس المبجل لا يزال يحمل بغضاً تجاه مقترحي: وكأنك تخاف على الولد الصغير مني، هل أنا حقيقة رجل خطير كأب؟ صدقني أيها القس المبجل العزيز- ابتسم- أنا أتفهم موقفك، تعيد تلميذك إلى الأب الضال بقلب حزين... تلميذك الذي ربيته سنين طوال... هذا الشعور سيكون مفخرة اندفاعك التربوي...

جلس تيمار هناك أثناء ذلك كالمريض في كرسي طبيب الأسنان،

---

٤٦) الهيبة درة الشيخوخة أو الكبر في السن.

كمن يجرون على روحه أكثر العمليات الجراحية تعقيداً، كان مشلول الإرادة تماماً أمام معذبه، واشتد فضحه لشعوره هذا بشكل متواصل، ما عاد يقدر السيطرة على مشاعره؛ علت الغشاوة عينيه من الدموع ببطء وأخيراً انهمرت كلمة ضعيفة، ساخنة من لسانه كذلك:

- عليّ أن أعترف... بالفعل أفترق عنه بقلب حزين... فقد أحببته كثيراً... وإن أمكن...

ارتجف صوته وتقطع. والآن رأت عين الكاتب الحادة كعين الصقر أعماق روحه بشكل كامل وعلّق في نفسه على ما رأى بسخرية، تلقف ما راقب مثل حالة فرويدية لاذعة.

"هذا القس يعشق الفتى" -فكّر- وأعجبته هذه الفكرة.

- "هذه هي نقاوة الترهب"

ضحك في سرّه.

- أنا أتفهّم ذلك، أتفهمك بشكل كامل، حضرة القس المبجل الذي يتمتع بسمعة طيبة! تعيش بدون امرأة، بدون أي شيء يجعل هذا البؤس محتملاً لنا نحن المذنبين الدنيويين... محبة ولد صغير تعوض المربي الجيد كل شيء؛ لديه يتحول كل شيء إلى أحاسيس تربوية متسامية- بينما يتخذ شكل الجسديات الفظة عند أبناء العالم الأشرار... أعترف بأنني أحسد حضرتك: فقد اخترت الجزء الأفضل، eros ouranios[٤٧] الأفلاطوني- بينما نرزح نحن في القيود الأرضية للمرأة. -آه، المرأة! La femme, enfant malade et douze fois impure[٤٨]... صدقني حضرة القس المبجل، اخترت الجزء الأفضل! فأنا يمكنني الحديث عن هذا الأمر بشيء من الموثوقية...

---

٤٧) الحب السماوي الأفلاطوني [الصحيح uranius]

٤٨) المرأة، طفل مريض واثنتا عشرة مرةً غير طاهرة (باللغة الفرنسية)

أحس تيمار بدوامات تتهيأ لابتلاعه؛ رأى لأول مرة- بعيون أخرى- حياته بهذا المنظار؛ كأن كل شيء عزيز ومقدس أمامه قد تلطخ بالوحل؛ ما عاد له من رغبة سوى تخليص نفسه وتخليص بِشتا من هذا الظن المرعب، لأنه شعر بتدنيس كلمات الغريب بِشتا مثلما تدنسه هو، فاض كلام فيتاني بحسن نية دنيء؛ تأسف لأنه أزعج هذا "المشهد الفايدروسي"[٤٩]؛ لا بل أشعره بأنه "يمكن إقناعه" بالانسحاب: فهو أب في أحسن الحالات- أب لا يعرف حقيقةً هل هو أب أم لا؟

- أعتقد أن الآباء يتمتعون بأدنى الحقوق في أبنائهم، لم أر أبداً أي أب تمكن من فهم ابنه، نحن الآباء المغفلون لا نستطيع فعل الخير لأبنائنا أفضل من الاختفاء تماماً من حياتهم...

غير أن تيمار أفاق، وشدّ من عزيمته، شعر بوجود طريق واحد أمامه، طريق التنازل؛ فهو لا يستطيع الاستمرار بالتمسك بالفتى بعد كل الذي دار هنا من حديث دون أن يجلب الشبهة له ولنفسه، قام بذلك في قرار بطولي رأى أنه واجبه؛ جفف من دموعه الدخيلة وعمل على إخفاء رعشة صوته.

- لا أتفق وهذه النظرة. الصلة الطبيعية رابطة مقدسة، والرب قضى بأن يتبع الولد أباه ويطيعه.
- نعم، لكن إذا كان الأب عجوزاً مذنباً، مثلي...
- يجب ألا يرى الابن أخطاء أبيه... الابن يغطي عورة أبيه، مثل ابن نوح...
- صدقني أيها القس المبجل العزيز، يجد الشاب متعةً أفضل من تغطية عورات شيخ عجوز... على الخصوص، عندما لا يوجد ما

---

٤٩) إشارة إلى عمل افلاطون "فايدروس"، يذكر فيه عن تمشي سقراط وتلميذه فايدروس في أماكن بهيجة وهم يتحدثون عن الحب وخلود الروح.

يثبت أبوة ذلك الذي يدعيها، الصلة الطبيعية غير مرئية تماماً بالنسبة للعين الأرضية للأسف... أتعرف، حضرة القس المبجل، أعتقد أننا نتحاسب في غياب المالك عندما لا نسأل الشخص الذي يهمه الأمر، الشخص الذي نتحدث عن مصيره الآن، فالفتى أصبحت له شخصية وإرادة مستقلة في آخر المطاف؛ أما نحن، فلسنا سوى قردين عجوزين لا غير... لنتحدث في البدء مع الفتى... ولنعلق الأمر في انتظار قراره هو... هل ترضى بهذا يا حضرة القس؟ لديه كل الحق في الاطلاع على ذلك...

احتجت مشاعر تيمار على هذا "الإطلاع" بشكل كامل، أن يتحدثوا للفتى عن ماضي أمه؛ أن يختار بهذه الطريقة بين "الآباء": يتعارض هذا أشد التعارض مع كل مبادئ التربية عند السيسترسيين؛ وفيما عدا ذلك انتفض ذوق تيمار ضد ذلك بشكل سليقي: فقد تجنب بحذر الخوض في غمار المسائل الشائكة مع بِشتا دوماً، لكن الاعتبارات التربوية مع بِشتا بالذات لم تعنِ الكثير؛ فقد بدأ بِشتا بالتفوق تدريجياً وأمسك بعنان كل خيوط السيطرة الفكرية على أستاذه الكهل، وتطورت بينهما الثقة إلى درجة لم يمنع معها التطرق إلى أي موضوع سوى حياء تيمار الزائد، وبالمناسبة، ثبتت شجاعة وانفتاح وسماحة ذكاء الفتى. والآن ساعده الصحفي على تجاوز عقدة الحياء التي عجز عن تخطيها، شعر تماماً، مهما كان الموقف الذي يتخذه الآن ستكون إرادة الفتى هي الحاسمة في المحطة الأخيرة، بِشتا لم يعد ذلك الشخص الذي يمكن تقرير حياته بالضد من إرادته، وتفاقمت في تيمار الأنانية السرية، قرار الفتى مع ذلك سيكون في صالحه؛ وهكذا سيحتفظ بابنه الروحي!

أسرعا إلى بيت بُعُزي على الفور بناءً على اقتراح الصحفي (الذي رغب في السفر عائداً اليوم التالي، وربما يأخذ معه الفتى) كان عصر يوم صيفي

مبكر صاف؛ انقشعت من فوق المدينة الصغيرة غيوم النعاس الفاترة التي جلبها هضم طعام الغداء؛ الساعة الخامسة؛ في الشارع الرئيسي تتمشى سيدة راقية مع بناتها للقيام بزيارة ما، سار تيمار صامتاً إلى جانب الصحفي المثرثر على الدوام الذي تمتع بالهدوء وانتقده كظاهرة مثيرة، برنة دقات ساعة برج الكنيسة، بحزمات أشعة الشمس العريضة التي استلقت على جدران البيوت الصغيرة، بالطين المتعري من بين أحجار الرصيف المحدبة، بالمارة وأناقتهم الريفية، سيكتب مقالاً عن مدينة شوت، كان ظهورهما شيئاً مثيراً لعش دبابير القيل والقال هذا؛ راقبهما المتمشون إلى أي بيت سيدخلان، وبالتأكيد ستتناقل الألسن الكلام أثناء اللقاءات المسائية هذا اليوم في كل مكان.

باحة بيت بُغُزي الفسيحة الفارهة، في الطارمة جماعة مرحة، تتطاير وشوشة البنات كالفراشات بين أصوات رجالية خمرية الطعم.

- هل ندخل؟

سألتهما صاحبة البيت الودودة.

- لا، لا، هنا أكثر لطفاً في الخارج.

وزعت الصحون على المنضدة في الشرفة التي انعكس فيها لمعان الكرات الزجاجية الملونة الموضوعة للزينة في الحديقة.

- أهلاً بابن أخي

قال العم إمره الشيخ الثمانيني كامل القوى، مصافحاً يد الضيف بحرارة مجرية، فالضيف عنده مقدساً كائناً من يكون.

- هؤلاء أطفالي- أصبحوا كباراً، أليس كذلك؟ -تباهي السيد بُغُزي الطيب. -وهذا ابني العزيز: -فانحنى بِشتا...

مضت ساعتان.

الطفل الذي تنافس عليه الأبوان يتمشى ذاهباً عائداً في الحديقة يستبد به القلق، يقطّع بفمه تويجات زهرة اقتطفها، دون أن يعير انتباهاً للكلب الذي يتقافز حواليه، ويقعى أحياناً، أو يحاول القفز عليه من وراء ظهره أحياناً أخرى.

تجلس فتاة يافعة بوجهها النضر تحت ظلال العريشة في الجانب، تراقب بعينيها كل حركات الفتى خفية، غير أن بِشتا يتجنب النظر صوبها بإرادة رجالية؛ يستمر في التمشي بجدية؛ مستغرقاً في التفكير.

ترن كلمة واحدة في رأسه، كلمة واحدة تكوي تلافيف دماغه كبلورة نترات الفضة، لكنه يطرحها من أفكاره بفخر مرة تلو الأخرى بينما يرمي رأسه للخلف أحياناً في حركة تنم عن العناد.

- لا يهم. لا يوجد فارق بين إنسان وآخر، مهما كان الدم الذي يسري في عروقي، هذا لا ينتقص هذا من قيمتي!

التمعت عيناه.

- ألست إنساناً متميزاً عن هؤلاء البلهاء؟

وأشار إلى محيطه بإشارة واسعة من يده، هؤلاء ناس مجريون حقيقيون طيبون، لكن، يا إلهي، كم هم بلهاء! بُغْزي الرائع الذي تتوزع حياته بين القضايا القانونية الصغيرة والمتعة مع أصحابه! وكل الآخرين، السادة الذين يقضون وقتهم في أقبية الخمور وفي الكازينوات! لا يوجد رجل واحد هنا ذو سعة أفق، لا تثمر هنا حتى فكرة واحدة أكثر حداثة! أما أساتذته! ليست لديهم أدنى فكرة عن الثقافة الأوروبية! بينهم تيمار هو الاستثناء- وظهر أمامه وجه تيمار الأليف ونظراته التي قاربت العجز والتوسل وهو يودعه بعد ظهر اليوم إثر طلبه (بجدية المراهق) بعض الوقت للتفكير.

- سأسافر في الغد، يا ابني، هل تستطيع حضرتك التوصل إلى قرار حتى ذلك الحين؟

تملقه برفعة دنيوية خاصة، وقد خاطبه بصيغة الاحترام، الأمر الذي أثار إعجاب بِشتا بشكل كبير.

- يا ولدي العزيز، فكر جيداً قبل أن تتخذ القرار... أنا... أنا بالطبع سأفرح لو تقرر البقاء هنا... لا تنس أنني... أنني أنا أيضاً كنت أباك...

قالها الراهب السيسترسي؛ لكن بدون رجولة كافية؛ وعيونه تكاد تغرق بالدموع، فأثقلت هذه المحبة الكبيرة عاتق بِشتا، ما كان على تيمار أن يتمسك مثلاً برحلة العطلة؛ أراد أن يشترط بقاء بِشتا معه خلال هذا الصيف بأي ثمن، بسبب الرحلة الإيطالية، لكن ما نفع ذلك؟ هل يريد أن يصرف عليه المزيد والكثير من المال؟ ألا يكفي أنهم أعالوه لحد الآن؟ أما أبوه، فهذا أمر مختلف، يمكنه أخذه في سفر؛ وقد عرض فيتاني فوراً أخذه في رحلة حول كل أوروبا. يسافر تحت إشراف قسيس؟ كفانا من هذا...

صحيح، صحيح. تيمار كان أبوه الثاني؛ وهو ممتنّ له كثيراً- لن ينسى ذلك أبداً- لكنه لا يستطيع البقاء معه مرتبطاً بعزوبيته، وما فائدة تيمار من ذلك؟ -إذ لو كان في ذلك فائدة، فهو مستعد للتضحية بكل شيء من أجله- وتمنى أن تسنح له الفرصة التي يمكنه القيام بذلك، لكن بقاءه الآن عالة عليه لا فائدة منه، وسيزيد من همومه على الأكثر... لم يقل كل هذا لتيمار لأن خجله واعتداده بنفسه منعاه من الكشف عن مشاعره على هذا النحو... لكن يجب أن يعرف تيمار ذلك...

نعم، يحب تيمار، لكن... يمكنه أن يتحلى برجولة أكبر... لا فائدة، من الواضح أنه: قس؛ لن يجلب له بقاؤه معه سوى الأسى؛ لأن كل مشاعره وكلماته المتحررة ستجرحه... لو كان الإيمان يغمره، لو كان كاثوليكياً متديناً هو أيضاً... لكن نظرتهما إلى العالم مختلفتان! وهو لم يعد طفلاً صغيراً يمكن تربيته... لا، يحتاج شيئاً آخر: يحتاج الحرية والعاصمة! وظهرت أمامه

ملامح فيتاني، كم يختلف هذا الرجل عن كل الذين رآهم إلى الآن! ما أذكاه، وما أوسع ثقافته، وما ألطف تعامله وترفعه، وما أجمل أناقته المدينية، رجل أوروبي حقيقي... ورجل شهير، وفوق ذلك كاتب معروف! امتلأت روحه بإثارة لا محدودة لفكرة مجيء هذا الرجل إلى هنا من أجله، وما عليه سوى النطق بكلمة واحدة حتى تتحقق رغبته القديمة الخفية: الذهاب إلى بودابست، حيث الحياة والعالم وحيث يكون حراً، سيد نفسه؛ لأن- فسّر لنفسه- آراء فيتاني في التربية ليبرالية تماماً... وأخيراً يستطيع أن يقرر مصيره بنفسه! وبرغم ذلك- لم يعترف بذلك حتى لنفسه، ومع ذلك شعر به- كان لديه نفور كبير من عرض فيتاني، تململ داخله الولد الجبان الصغير، ريبب القساوسة؛ شعر بالأمر وكأنه غير سوي، شيء من قبيل المغامرة؛ في حين ما المغامرة في اتباع الولد أبيه؟ لكن فيتاني، مهما أثار فيه من إعجاب، يبقى غريباً عنه إلى درجة ما؛ لم يقدر أن يسميه أبي مهما حاول مع نفسه... لا تزال كل روحه متجذرةً في بيئته القديمة، غير أن العناد لم يسمح له بالاعتراف لنفسه بهذا الشعور؛ وخصوصاً ما كان ليكشفه أمام تيمار مهما كان الثمن. لا، لا، كل كبريائه احتج ضد تأثير محيطه عليه، لا بل عندما دعاه تيمار ليأتي عنده في المساء حتى يتكلمان في قراره سوية، رفض بكل إصرار.

- أريد أن أقرر لوحدي.

قال ذلك بشيء من الفجاجة، بعناد الشاب اليافع الذي يريد أن يُعامل مثل البالغين، رأى تأثير كلماته بشكل واضح، رأى كم تألم أستاذه لرفض أعز تلميذ عنده حتى الاستماع إلى نصيحته الخاصة في نقطة تحول حياته هذه، لكن زهوه الطفولي بنفسه منعه من تخفيف تأثير كلماته، امتقع وجه تيمار المسكين من المرارة؛ كأن سكيناً اخترقت قلبه فجأة: هل علاقته الروحية بابنه ضعيفة إلى هذا الحد؟ واختفت الآلام الباقية من أمام عيون الفتى؛ فقد انطلق بِشتا ليرافق فيتاني إلى الفندق دون يحس بعذابات

تيمار: يا لهذا الفراغ الذي هبط فجأة على فيرجيل الكهل عندما تخطى عتبة البيت العزيز. كان بِشتا قائد معركته التي يخوضها، ولم يكن في وسعه الاهتمام بالجرحى.

بقي تيمار لوحده، وفجأةً شعر بنهاية كل شيء، بأن أجمل سنوات حياته ستصبح ذكريات أليمةً بعد هذا اليوم.

نعم، كل شيء كان عزيزاً في حياته، بِشتا نفسه، ابنه العزيز الأثير لديه أصبح ذكرى حزينة.

كل شيء كان كئيباً! اكفهرّ الشارع الريفي المرح، تسللت نوبة رياح شديدة إلى أول الصيف، تطايرت أمام الكنيسة وعلى مرتفع الدير أوراق الشجر الصفراء مع الأتربة كأنما حل الخريف، تذكر، جلبه معه في نفس هذا الطريق لأول مرة عندما ماتت لينا تشبعت كل الشوارع والزوايا وكل المدينة الصغيرة بذكرى بِشتا، نعم، نعم، شعر تيمار الآن أن هذا لا يدوم إلى الأبد، والحياة كتب عليها الفناء، وبرر في نفسه موقف الفتى: فمن الطبيعي أن يرغب في الحرية، وألاّ يفهم مشاعر القس الكهل... ولعله الآن أيضاً تمنى في السر أن يتوافق قرار بِشتا مع رغبته هو؛ لكن لهذا السبب بالذات سعى إلى إعطاء تصرف الطفل البارد والرافض أهميةً كبيرةً انطلاقاً من تطيّره، وسعى إلى إقناع نفسه بأن بِشتا سيتركه مع ذلك: وأكثر ما أفزعه وآلمه هو شعوره بأنه مهما فعل سيبقى الأمل المعشعش في أعماق روحه مكبوتاً، يعذبه ويتعبه مثل حكّة لا تترك حزنه يذوي، لو يعرف على الأقل أفكار الفتى، لو يستطيع رؤية ما في داخله! لو يستطيع التحدث إليه على انفراد! هذا الارتياب البارد العدواني أشد ما يؤلم! هذا هو تردده الكبير! ما أبرد المساء الذي ينتظره، والوحدة، وأية ليلة سهاد تلك التي تنتظره!

أوصل بِشتا فيتاني إلى فندقه، فأزاح وجهٌ آخر وجه فيرجيل الحزين في أفكاره بينما كان يجتاز الحديقة الكبيرة مهموماً، التقى بمارك سادي

وجهاً لوجه (الذي عرف بنقطة التحول في حياة الفتى، لأن بُعُزي نقل الخبر إلى الدير). تذكر بِشتا هذا اللقاء أيضاً بغضب وخجل كبير، رأى على محيا الراهب التقزز المصطنع بسبب إعطاء مثل هذا الطفل حق تقرير مصيره بنفسه:

- هل قررت؟

رنّ في أذنه الصوت المعسول الذي أراد به التأثير عليه:

- يا ابني، لا تنسَ أنك ترعرعت في بيئة سيئة الصيت؛ لكن الرب انتزعك من هناك وغرسك في تربة صالحة، ابقى ابناً مطيعاً للكنيسة ولا تدع نفسك عرضة للانجرار إلى دروب العالم الدنيوي...

- أبي يريدني أذهب معه...

- يجب ألاّ نتبع الأب الدنيوي، بل السماوي، الأب الدنيوي يعتني بحياتنا الجسدية لوحدها... لا تنس، فيك بذور طالحة والأستاذ تيمار زاد في تدليلك...

بذور طالحة فيه؟ وما هي هذه "البيئة سيئة الصيت" التي ترعرع فيها كما يقال؟ ثم فهم فجأةً أن الأستاذ غمز له في أمه وتولده غير الشرعي، وصعد الدم إلى رأسه، وبأي حق يتكلم معه مارك سادي بغير صيغة مخاطبة الاحترام، مع أن العادة تختلف مع الطلاب الكبار مثله؟ حتى فيتاني لا يخاطبه بدون تكلف هكذا- برغم أن له كل الحق إن أراد...

هكذا سار بِشتا في الحديقة جيئة وذهاباً، يملؤه العناد يقضم في فمه وردة قطفها ملوحاً بأفكار الحرية والعاصمة والحياة على أوسع أبوابها، كالبيارق المرفوعة فجأةً ترفرف في نسمات شبابه، أشرقت شمس المغيب للحظة من جديد، وعاد الصيف على الفور، فتذهّبت قمم الأشجار التي رمت بظلال طويلة على زهور حدائق البيوت، ضجّ رأس بِشتا بأشعار آدي

التي قرأها في تلك الفترة بمتعة وحماسة كبيرتين، أناشيد المدينة والرغبة في الحياة.

نظرت البنت إليه من العريشة، أطالت النظر إلى بِشتا، لكن عبثاً انتظرت فلم يستدر برأسه نحوها. "لا وألف لا" -فكر بِشتا وكانت تلك النظرة المتحرقة بالقلق التي شعر بها مصوبة نحوه على الدوام دون أن يراها سبباً جديداً لزيادة عناده، نفذ صبره، أراد أن يقطع الخيوط غير المرئية التي شلّته وتريد تقييده إلى هذا المكان؛ شعر بتآمر كل من كان حواليه، بأن البنت تحالفت مع تيمار برغم معرفته جيداً بالغيرة السرية المتبادلة بينهما في السابق، شعر أن هذا التحالف الصامت مؤامرة ضد حريته.

- ليس لأحد الحق فيّ سواي!

شعر أن كل محبة نحوه هي ضعف، كان في تفوق أمام كل من منحه محبته فسلب منه كل سيطرة وتأثير، انجذب للمرأة غير الجميلة السائرة في الشارع الناظرة إليه بحيادية أو باستغراب، أكثر من بنت بُغُزي الرائعة الجمال، التي عشقته في السر، كل محبة لم تثر فيه سوى العناد، لأنه شعر في ذاته أن المحبة تعطي المحب حقاً على المحبوب، وهذا ما لا يحتمله.

- ليس لأحد الحق فيّ سواي!

عبر في داخله للمرة الثانية عن هذه الكلمات، واستدار بعينيه العنيدتين نحو العريشة مرغماً، حيث نظرت إليه عينا الفتاة الكبيرتان القلقتان من رواية ليوكاي ووجهتا إليه سؤالاً وطلباً متوترين:

- لن تذهب، بِشتا، أليس كذلك؟ لا تذهب!

- أيتها البنت الجاهلة!

فكر بِشتا وهو يحيد ببصره عنها- بنت طيبة، لكنها جاهلة! -وتخيل صور نساء تتمايل أمامه في الغيوم الوردية للغسق، نساء ناضجات يمتلأن بالحياة لم يتعرف إليهن لحد الآن سوى في الكتب.

في المساء، عند الطارمة، تجلس العائلة حول طعام العشاء، يضيء المصباح المنضدة العامرة بضوء حاد بينما تتطاير حوله الفراشات الليلية وترتطم بزجاجته وبالوجوه وتصطدم بشرشف المنضدة، في الخارج تهمس الحديقة مثل البحر الأسود كالمداد، يهمس الصمت، والبُعد.

- يذهب؟ -اغتاظ الشيخ بُعُزي. -كيف يذهب؟ لن تذهب، أليس كذلك يا صديقي بِشتا؟

- لا أدري بعد، يا جدي.

- سأرى كيف تذهب! لا، أنت لن تذهب، إذا ما قلت لك ذلك! كيف يمكنك التفكير في هذا؟

- اتركه وشأنه أبي- قاطعه المحامي بُعُزي. -ما فائدة الكلام الزائد؟ إذا رغب في البقاء فهو يعرف جيداً أنه عندنا في بيته؛ أما إذا أراد الذهاب، فمن الطبيعي أن يذهب الولد مع أبيه...

جحظت عينا العجوز في وجهه.

- أبوه؟ كيف تقول ذلك؟ أي أب هذا الذي لا يسأل عن ابنه خلال سبعة عشر سنة؟ ليس أباه، وانتهى! يكفي أن تنظر إلى بِشتانا: إنه طفل مسيحي طيب! من يتجرأ القول إن هذا الكويتب اليهودي هو أبو بِشتا؟

- يا جدّي!

نظر بِشتا بعيون تقدح وبوجه ملتهب إلى العجوز.

- يا جدّي، لا تجرّح في أبي!

تدخل المحامي بُعُزي لتهدئة الموقف من جديد:

- لا يقصد أبي ما يقول فقد أخذته المحبة، صحيح، شتمنا اليهود كثيراً، لكننا نقصد اليهود المخادعين غير الشريفين، إذ يوجد بين هؤلاء أيضاً أناس شرفاء، أعرف يهودياً أحترمه أكثر من بعض المسيحيين،

وفيلموش فيتاني في كل الأحوال رجل ذو عقل راجح، وعلينا أن ننحني أمام المتميزين فكرياً، لا أحد يخجل، لو كان فيتاني أباه.

قالت العمة بُغُزي التي دخلت للتوّ قادمةً من المطبخ:

- أقول فقط، يا ابني، لا تصبح يهودياً- لا تصلح لتكون من هؤلاء؛ أنت بيننا في بيتك...

- كفى!

صاح المحامي بُغُزي، هذه المرة هو أيضاً بصوت فاقد للصبر، عند بِشتا ما يكفي من الذكاء ليعرف ما هو الأفضل لمصلحته؛ وإذا كان لا يعرف، فهذا شأنه، هو الذي سيندم لاحقاً، اتركوا تقرير الأمر له، ما دام أبوه قد تركه له.

بهذا أخذ العجوز يتململ من جديد. (كل كلمة من كلماتهم أصابت بِشتا في الصميم كالنصل، وأعطت مزاجه المتمرد جرعة جديدة).

- أبوه ترك له تقرير الأمر! يا له من أمر مضحك! -صاح الشيخ. -أي أب هذا الذي يترك لإبنه أمر قبوله أب أم لا؟ من سمع بمثل هذا؟ سأعطيه أنا أباً ليختار، -على مؤخرته- هاهاها!

- لا، لكن حقاً، أي أب هذا الذي يخاطب ابنه بصيغة رسمية- قالتها العمة بُغُزي.

نهض بِشتا من المنضدة وغادر دون أن يتفوه بكلمة.

- اتركوه

قالها المحامي بُغُزي: من الأفضل تركه لوحده الآن.

ثم سكب محتويات كأس الخمر ومعها الفراشة.

في ذات الوقت، في صالة طعام دير السيسترسيين، يدور تماش بطبق السمك على الجالسين، محل تيمار فارغ.

تساءل لّشينسكي الذي يدعو تيمار باسمه المدني بتعنت:

- أين يانوش؟

أجاب تماش:

- طلب عشاءه في غرفته.

- ليس مجنوناً! -قالها سوبوسلاي. -لن يلبث إلى جانب قسٍ عجوز حتى الممات!

قال مارك سادي:

- لاقيته فتى ناكر الجميل؛ يبدو عنيداً وسيء النيات، قلت دائماً، يجب ألاّ نجعل الطالب مغتراً...

- عبثاً، لا يختفي الدم اليهودي- صاح لّشينسكي وهو يمسح إصبعه بفوطة الطعام. -ليذهب حيث يليق به، إلى يهودابست! -(لم يمنعه كرهه للنمساويين من استعمال مقولة عمدة فيينا المعادية للمجريين).

قال سيريل غومبوش:

- كان على فيرجيلنا أن يكون أكثر ذكاءً لنعترف بصراحة، ما عمله مع هذا الفتى زاد عن كل الحدود.

- مغالاة القلب أمر جدير بالاحترام- قالها المدير رئيس الدير.

سكب تماش المزيد من خمر شوملاي (من أقبية الدير)، ثم استمروا في مناقشة الأحداث طويلاً.

تناول تيمار عشاءه بمفرده. هدّأت من روحه طمأنينة حزينة عندما وصل غرفته.

- انتهى، حتى هذا انتهى- تمتم مع نفسه. -والآن يأتي سن الشيخوخة... الشيخوخة المغرقة بالوحدة.

نادى على تماش، ثم نظر وهو يتكئ إلى الشباك كيف يصب النادل الطعام.

- هكذا ارتأى الرب- فكر في نفسه. -لم أتمسك بطريقه بكل إخلاص: بعثرت محبتي على مخلوق أرضي. والآن تعلمت، من يرمي مرساته على البشر الفانين يصبح ألعوبةً للريح...

تعالت ظلمة ليلة الصيف في الخارج، خلف ظهره. ارتعشت الأشجار في الريح بعصبية، اسودّت كتل الأغصان الكثيفة في أعماق الحديقة الواسعة، أبحرت في الأعالي نتف غيوم صغيرة مسرعة خلف البيوت، مثل رسالة مُزّقت ورميت في ماء جدولٍ سريع.

- سيذهب- فكر تيمار- سيغادر في الغد، لأننا اتفقنا مع فيتاني (إذا ما رغب الفتى في الذهاب معه) على السفر فوراً ليلقي نظرةً على العالم الذي سيعيش فيه بعد الآن؛ أما ثيابه وأغراضه فيمكن إرسالها بعده لاحقاً، أو يعود ليأخذها بعد أن يجهزوها له- يمكن أنني لن أراه ثانيةً- فكر المعلم.

وفكر في الفتى فتراءت أمامه صورة تخيله في ساحة صاخبة من ساحات المدينة بين العربات والسيارات المسرعة واقفاً وسط الشارع عند إشارة المرور- كما يتخيل الريفي صورة المدينة المليئة بالمخاطر والزحام- مرفوع الرأس وعيونه ملتمعة ترنو إلى المستقبل لا يعبأ بالضجيج والخطر، مثل قائد منتصر، لعله من الأفضل ذهاب الفتى إلى العالم الواسع، ليجاهد ويصارع بينما يبقى مربيه الكهل في بيته، ليموت وحيداً، هذه إرادة الرب، يترك الفتيان المدينة التي ولدوا فيها ويذهبون حيث مغريات الحياة؛ قد يضلون الطريق، يتعثرون، ينتصرون أو يخسرون، لكن عليهم الكفاح، فكر تيمار بأغسطين المناضل الشجاع من جديد، لم يختبئ في شبابه بين جدران الصوامع، ولم يتهرب من مواجهة الحياة بل تصارع معها وفشل

عدة مرات، لكنه ينهض بعد كل كبوة منتصراً على الحياة وهكذا أصبح قديساً كبيراً، ما نفع الذي لا يكافح أبداً بل يتخفى من أمام أنظار عدوه؟

أشاح تيمار بوجهه عن الشباك حزيناً: فهو قد تهرب من وجه العدو! يا لها من حياة وحدانية خالية من الكفاح والجدارة هي حياته! لم يلتقِ بالحياة أبداً وجهاً لوجه، فكر في بذخ الحياة الجذاب الذي لن يراه أبداً... لم يخض معركته الخاصة به مع المرأة، غمره ندم لا يستطيع البوح به، أحس بنقص كبير في حياته: لا، يجب ألاّ يصبح "ابنه" مثله فاقداً للكمال! ليس البطل من لا يناضل أبداً: بل من ينتصر!

نعم، نعم، شعر بأن خروج بِشتا إلى لجة الحياة، الحياة المتوحشة والصراع مع الحياة والمال والأفكار والمرأة هو الأمر الصحيح... ومع ذلك لم يتمكن من التفكير بدون أن ينقبض قلبه: أي أذرع ستحتضن ابنه، وأي شِباك سترتمي عليه! تصور أذرع المرأة كالأفعى الملساء الجميلة تتلوى ممتدة من زحام المدينة، تخيل عيون المرأة المتربصة بالروح والجسد: فقبضت على قلبه يد الغيرة الخفية.

إلا أنه خجل من نفسه على الفور، خجل من نفسه أمام نفسه، خطرت في باله تلك الغيرة المريعة المنحرفة المهينة التي شعر بها نحو بنت بُعْزي في وقت من الأوقات، وخطر في باله كذلك عصر هذا اليوم، عندما شعر بتحالفه مع نفس هذه البنت بينما رآها تضحك مع بِشتا، ولمح نظرة من نظرات البنت، قرأ فيها أنها فهمت شعوره من عينيه؛ وهو يعلم علم اليقين، أن بِشتا فهم شعوره كذلك، يا لها من مَذلّة! ما ندم عليه في ذلك الوقت هو كبرياؤه وكل كرامته كقيسٍ وكمربٍ وكإنسان! وقتها امتلكته فكرة واحدة وغلبه شعور واحد واكتسحه خوف واحد: سيتركه بِشتا إلى الأبد! خجل كثيراً من نفسه عندما فكر في هذا! يا له من ذل، يا له من عار يا ربي، إلى أي منحدر يهوي الإنسان عندما يرمي مرساة محبته بين البشر الفانين ذات مرة!

الرب هو الملجأ الحقيقي الوحيد، بدونه حتى القديس يتعثر سبع مرات في يومه، كل محبة دنيوية لا تتسبب إلا في العثرات والندم؛ غير أن كل عثرة وندم على الأرض هي خطوة جديدة تقربنا من الرب، على من يزوره الرب ألاّ يبكي، لأن كل خسارة دنيوية تعني الخلاص، ومن يخسر الدنيا يربح الرب، وعلى من تطرحه خطاياه أرضاً ألاّ يجزع: لأن الرب يسمح بضلالنا أيضاً حتى يقوى شعورنا بضعفنا فيقوى بحثنا عنه.

خرّ تيمار على مسند الصلاة وضغط برأسه المنحني على لوحه إلى أن شعر ببرودة خشب السنديان عبر الغطاء المطرز الخفيف...

كانت ليلةً ظلماء بلا قمر، عصفت الريح وهدرت الحديقة الكثيفة في الخارج كالبحر! قفزت نوبة ريح من الشباك وعبثت بمخدع المعلم السيستري البارد فأثارت شعوراً مريحاً بالإبتراد، اعتاد دوماً النوم وشباكه مفتوح... إلا أن الوسن تجنب جفنيه حتى وقت متأخر هذه الليلة، اتكأ بمرفقيه على الوسادة ونظر في الليل الغامض. تلاطم البحر في الخارج وتماوج.

Nox erat, et placidum carpebant fessa soporem

Corpora...[٥٠]

جالت أبيات فيرجيل في رأس تيمار، في الليل يهدأ كل شيء،

...pecudes, pictaeque volucres...[٥١]

إلا ديدو عاثرة الحظ لا تنام على الوسادة، تلاطم البحر في الخارج وتماوج، وانشدّت صوارٍ ضخمة حتى السماء، يتهيأ الطروادي الكافر للمرة الأخيرة...

---

٥٠) وهبط الليل، وهطل نعاس حلو على أجساد الأحياء المتعبين (الإنياذة، النشيد الرابع الأسطر ٥٢٢ و٥٢٣)

٥١) [كل الأصقاع هدأت..] كل وحوش البر وكل الطيور المزرقشة (من السطر ٥٢٥)

آخ، لا! دوّخه الترابط غير المقصود وأرعبه، كم دنس هو الحب الأرضي! لكنه ليس محبةً حقيقية:

nondum amabam, et amabam amare... amorem

...amabam... et quaerebam, quid amarem

اقتبس في ذاته سطور أغسطين[٥٢]. لم أحب بعد، لم أعرف مالذي عليّ محبته؛ وأحببت أن أحب: أحببت الحب: بحثت عما أحب...

الآن يأتي الحب الحقيقي الوحيد: محبة الرب...

في الصباح- وحسب الاتفاق- جاء بِشتا إلى تيمار، كان وجهه صبوحاً، صوته مليئاً بالإثارة السعيدة. حسم أمره... لم يرف قلب تيمار للحظة: عندما سمع الدقات على الباب، عرف مقدماً بتوارد الخواطر الغريزي ما سيحدث؛ -(ولعله لرمشة عين تمنى دون وعي أن يطرأ ما يخيب ظنه، لكنه كان يعلم جيداً في نفس الوقت أن هذا لن يحدث)؛ سلّم نفسه للقدر بشكل ميكانيكي دون مشاعر، كمن صفّى كل حساباته؛ كأن الفراق قد حدث بالفعل وما بقي الآن هو الشكليات الباردة؛ وكأن الواقف أمامه ليس بِشتا بل شبيهه، وكأن بِشتا الحقيقي قد أصبح ذكريات منذ زمن بعيد...

بِشتا كان سعيداً مليئاً بالحماس متطلعاً نحو المستقبل، تحدث مع تيمار باحترام مقتصداً في كلماته، إلا أن انتباهه وكل أفكاره كانت في مكان آخر، التقيا مرةً ثانيةً في ذلك اليوم في ميناء السفن عندما سافر فيتاني وبِشتا، جاء تيمار، بكل وقار بدون أي انفعال ظاهر، مثلما جاء لحضور مناسبة إلزامية اعتيادية: توديع تلميذه الذي رباه، أما بِشتا- ليس بسبب نكران الجميل أو فتور في المشاعر، بل لأن الإثارة في تلك اللحظة غمرت قلبه الطفولي بشكل كامل- فلم يره تقريباً، مثل أي شخص اعتاد عليه؛

٥٢) أغسطين: الاعترافات. مطلع الكتاب الثالث (اقتباس مع تغيير في التسلسل)

أتمم كل تقبيل الأيادي والمصافحات وهو شارد الذهن ومتعجل، ثم صعد إلى السفينة بخطوات سريعة يتبع فيتاني دون أن ينظر للخلف، أصدر فيتاني الأوامر إلى الحمال بعصبية وتكلف؛ ثم ظهرا على متن السفينة بعد حين، لوحت السيدة بُعُزي والبنت بالمناديل من الشاطئ، ابتسم بِشتا لهما برأس حاسر متوجهاً صوب الشمس؛ وتلاعبت الريح بخصلات جبهته، لاحظ تيمار، أنه لم ينظر نحوه.

... «غص الولد واختنق صوته، وأخذ بالنحيب، انبثق الينبوع الساخن من الأرض العطشى. لأسابيع طويلة لبس في عزة نفس قناع رجل وضعه على وجهه عناداً بمحبة واعتداد فطري بالنفس. كان هو ولي الأمر في العائلة، أما الآن فقد سقط القناع دفعة واحدة، الآن عاد طفلاً من جديد، طفل يخاف... يخاف أن يبقى وحيداً. غلبته كلمات معلمه بتأثر طفولي، وذابت كل رجولته على الفور، لأنه شعر بقربه صديقاً قوياً، وشعر بالراحة لأنه سيتغلب على الضعف أخيراً. وقف تيمار أمامه فاقد الحيلة، كم كان يود لو تمكن من التصرف بحرارة وأبوة وحنان ومواساة!.. لكن كينونة المعلم منعته من ذلك، كأنه درع الحديد على الفارس الهمام إن أراد أن يحتضن أحداً، بحث عن كلمات المحبة، فلم يخرج من فمه سوى سؤال جاف بارد لا يصدر إلا عن قس.»...

ثائـر صـالح: ولد في بغداد ثم انتقل في ١٩٧٩ للدراسة إلى المجر واستقر فيها، وهو متخصص في الهندسة البتروكيمياوية. انشغل بالكتابة الصحفية والترجمة منذ شبابه، ونشرت كتاباته التي تركز على السياحة تاريخ الأديان والفنون والموسيقى في أهم الصحف والمجلات العربية مثل الشرق الأوسط والحياة اللندنيتين، والنهار البيروتية والمدى البغدادية حيث يواصل نشر زاوية اسبوعية عن الموسيقى. ترجم شيئاً من الأدب المجري مباشرة من اللغة الأصلية، من ترجماته أعمال إمره كرتيس الحائز على نوبل الآداب سنة ٢٠٠٢ «لا مصير» و «الراية الانجليزية والمحضر»، «ولمحات من الأدب المجري». وترجم من المجرية كذلك كتاب ميهاي فضل الله الحداد «رحلتي إلى بلاد الرافدين وعراق العرب». حاز على وسام الاستحقاق في الجمهورية المجرية من صنف صليب الضباط عام ٢٠٠٤ لجهوده في التعريف بالآداب والثقافة المجريتين في العالم العربي من خلال نشاطه الصحفي وترجماته.

دار نون للنشر

ميهـاي بابيتـش: من الشعراء المجريين الكبار، روائي وصحفي ومترجم، شخصية مؤثرة في تأريخ الأدب المجري في النصف الأول من القرن العشرين، ساهم في تحرير مجلة "الغرب"، المجلة الأسطورية الأشهر بين الدوريات الأدبية في المجر، وتعزز دوره بشكل أكبر بعد وفاة الشاعر أندره آدي ١٨٧٧ - ١٩١٩، ثم أصبح رئيس تحريرها بالاشتراك مع الروائي جيغموند موريتس في ١٩٢٩ وأدارها حتى وفاته في ١٩٤١. ولد في مدينة سكسارد سنة ١٨٨٣، ودرس فيها وفي مدرسة الرهبان السيسترسيين في بيتش حيث استمد مادة الرواية الحالية التي بين يدي القارئ. درس الأدب المجري والفرنسي واللاتيني في كلية العلوم ببودابست. عمل في التدريس وبدأ بكتابة الشعر والنشر في الصحف. نشر ديوانه الأول «أوراق من اكليل إيريس» سنة ١٩٠٩، ثم واصل نشر دواوينه ورواياته. أبدع في الترجمة الأدبية، فترجم أزهار بودلير وعاصفة شيكسبير وأشعار وايلد، أهم ترجماته ملحمة دانتي «الكوميديا الالهية» التي ترجمها شعراً.

ISBN 978-91-87373-26-8